جدل
Jadal

العدد 38 | تشرين الثاني 2020

السياسة في زمن الكورونا

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

جدل 38

تشرين الثاني 2020

السياسة في زمن الكورونا

Politics in Covid-19 Times

المحرران: مهند مصطفى وعرين هواري

العدد 38

تدقيق: حنا نور الحاج

تصميم: أمل شوفاني

مسؤولة الانتاج: إيناس خطيب

العنوان: همغينيم 90 حيفا

البريد الإلكتروني: mada@mada-research.org

رقم الهاتف: 04-8552035

المحتويات

04 **المقدمة**
المحرران

05 **1. مقاربات نظرية**

06 تساؤلات مستقبل دور الدولة والاقتصاد الحرّ في ضوء جائحة كورونا
منصور أبو كريّم

11 الرأسماليّة، المجتمع، والتاريخ: ملاحظات في فهمِ الوباء
محمد قعدان

15 **2. الكورونا والفلسطينيّون في إسرائيل**

16 الأطباء العرب في إسرائيل – رؤية من الداخل
أسامة طنوس

26 جائحة كورونا وانعكاساتها على جهاز التربية والتعليم في النقب:
تحدّيات وتطلُّعات مستقبليّة
إبراهيم أبو عجاج

30 نحو إستراتيجيّات ملائمة لعلاج ظاهرة العنف الجندريّ في ظلّ جائحة الكورونا
منال شلبي

33 **3. الكورونا في السياق الفلسطيني العام- بين الوطني واليومي**

34 تمثُّلات البنْية الاستغلاليّة الاستعماريّة الإسرائيليّة للعمّال الفلسطينيّين خلال جائحة الكورونا
أحمد عز الدين أسعد

38 الضغوط الحياتيّة النفسيّة _ الاجتماعيّة والاقتصاديّة لدى المرأة الحامل،
في داخل السياق الثقافيّ الفلسطينيّ، في ظلّ أزمة الكورونا
غادة جمهور حلواني ومهدي حلواني

43 فلسطين في ظلّ الكورونا بين اليوميّ والقوميّ: تأمّلات شخصيّة
زينة أبو زرقة

48 **مقالات إضافيّة**

49 من وحي الانتفاضة عام 2000 وما بعدها
مهند مصطفى

مقدّمة

المحرّران

يأتي العدد الحاليّ من مجلّة جدل الثقافيّة والفكريّة في خضمّ مواجهة جائحة كورونا، الجائحة التي أعادت إلى السطح المعرفيّ دراسات سوسيولوجيا الأوبئة -إن صحّ التعبير-؛ إذ تكشف الأوبئة العابرة للحدود عن طبقة أخرى من ماهيّات البنى السياسيّة والاجتماعيّة والصحّيّة في المجتمعات والدول، وكذلك تعيد التفكير فيها وفي قوّتها وضعفها وهشاشتها أو حتّى جدواها. أسهمت الجائحة الحاليّة في النظر من جديد إلى الدراسات التاريخيّة التي قرأت تأثير الأوبئة، مثل الطاعون في أوروبا في القرون الوسطى، والإنفلونزا الإسبانيّة في بداية القرن الحاليّ، على تحوّلات سياسيّة وتاريخيّة بقيت مطمورة حتّى جاءت الجائحة الحاليّة فأعادتها إلى السطح في سياق مقاربات لتأثير كورونا على البنى السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعية والصحّيّة.

أسهمت الجائحة الحاليّة في الدفع لتناول مقاربات جديدة في الحقل المعرفيّ حول مفاهيم سياسيّة ونظريّة، نحو: النظام السياسيّ، والنظام الاقتصاديّ، وتدخّل الدولة ومسؤوليّاتها أو انسحابها، والحرّيّات الشخصيّة وحدودها في حالة الأزمات الوطنيّة، ومفهوم الدولة الوطنيّة /القوميّة أمام العَوْلَمة، وغيرها من المفاهيم. ولن تتوقّف مقاربات السياق السياسيّ عند هذه المفاهيم فحسب، وإنّما سوف تتّجه إلى صعود حقل معرفيّ يتعلّق أيضًا بنُظم التعليم، والنظام الصحّيّ، الجسديّ والنفسيّ، ودَوْر المجتمع المدنيّ والمسؤوليّة المجتمعيّة.

وفي السياق الفلسطينيّ، وهو مرمى هذا العدد، أسهمت جائحة كورونا وكشفت في الوقت نفسه عن الكثير من التداعيات على المجتمع الفلسطينيّ. بداية، كشفت الجائحة عن التمييز في النظام الصحّيّ الإسرائيليّ، وعن ديناميكيّة هذا النظام وارتباطه بالبنْية السياسيّة الاستعماريّة الراهنة ودَوْر الفلسطينيّين فيه، سواء أكانوا مهنيّين أم مستهلِكي خدمات. إضافة الى ذلك، الجائحة أزالت الغبار عن طبقة أخرى من الاستغلال الاقتصاديّ في النظام الاستعماريّ، ومآزق النظام الرأسماليّ والنيو_ ليبراليّة، غير أنّها زادت من تأزّم ظواهر اجتماعيّة مثل العنف ضدّ النساء، ولا سيّما العربيّات، ومعاناة النساء في ظلّ هذه الجائحة، وهشاشة جهاز التعليم العربيّ ولا سيّما في النقب، وفي الوقت نفسه حملت الكثير من التأمّلات في حياتنا اليوميّة ومن الدروس المستفادة، نتيجة التغيّرات التي طرأت على روتين سلوكنا اليوميّ من جرّاء الحَجْر الصحّيّ، والإغلاق ومنع التجوال، وتقييد حرّيّة الحركة والتنقّل وغيرها.

يأتي هذا العدد استكمالًا لسلسلة المحاضرات التي نظّمها مركز مدى الكرمل تحت العنوان "السياسة في زمن الكورونا"، والتي عرض فيها المحاضرون مقاربات تاريخيّة وسياسيّة وصحّيّة واجتماعيّة للسياق الراهن، ويناقش مفاهيم أتينا على ذكرها في السابق.

الرجوع لقائمة المحتويات

Jadal جدل

1.
مقاربات نظرية

تساؤلات مستقبل دور الدولة والاقتصاد الحرّ في ضوء جائحة كورونا

منصور أبو كريّم *

أثارت جائحة كورونا تساؤلات عميقة تتعلّق بدور الدولة ككيان منظِّم للحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، في ظلّ التحدّيات التي فرضها فيروس "كوفيد- 19" على الدول والمجتمعات، كما أثارت تساؤلات حول الاقتصاد الليبراليّ القائم على أساس مستويات أَدْنَويّة لتدخُّل الدولة في عمليّة الإنتاج، والاعتماد على الاستيراد بدلًا من دعم المنتَج المحلّيّ، وحرّيّة التجارة الدوليّة في سياق النظريّة الليبراليّة للاقتصاد الحرّ.

في هذا المقال، سوف أسلّط الضوء على مسألتين رئيسيّتين: الأولى دور الدولة في عمليّة الإنتاج في ظلّ التحدّيات التي تواجه حكومات العالم أجمع بعد أن ضربت الجائحة مَناحي الحياة كافّة، والثانية مستقبل اقتصاد السوق (الليبراليّ) في ضوء الإشكاليّات التي تمرّ بها العَوْلَمة الاقتصاديّة والتجارة الدوليّة، والسياسات النيو _ ليبراليّة التي تسبّبت فيها الجائحة.

أولًا

دَور الدولة ككيان سياسيّ في ضوء الجائحة

وضعت جائحة كورونا الدول حيال تحدّيات كبيرة، ولا سيّما في ضوء آثارِ الجائحة السلبيّةِ على قِطاع الخدمات العامّة، وتوقّف النشاط الاقتصاديّ وتبنّي معظم الدول سياسة الإغلاق الكامل في مواجهة الفيروس، وهو ما اضطرّها إلى فرض سياسات تداخليّة لدعم القِطاعات الاجتماعيّة الأكثر تضرُّرًا من الجائحة على نحوٍ يخالف توجُّهات الاقتصاد الحرّ التي تحتكم له.

بالمفهوم الأعمّ والأشمل، "الجائحة" تُصيب مختلف مجالات الحياة بالشلل والضرر التامَّيْن، المادّيّ والمعنويّ، وعلى المدى القصير والبعيد تضُرّ "الجائحة" بالإنسان على نحوٍ مباشر، وبكلّ ما يقترن به.[1] شَرَعتْ جائحة كورونا في تغيير السياسات العامّة، سواء أكان ذاك داخل الدول أم في ما بينها، ونتوقّع أن يؤدّي نجاح الحكومات النسبيّ في التغلّب على الوباء وآثاره إلى زيادة القبضة الأمنيّة داخل المجتمعات.[2] وبات من الواضح أنّ هذا الوباء سيقوّي الدولة ويعزّز القوميّة؛ فقد تبنّت الحكومات بمختلف أنواعها إجراءات طارئة لإدارة الأزمة، وقد ترفض بعضها التخلّي عن هذه الصلاحيات الجديدة عند انتهاء الأزمة.[3] فمن المتوقّع أن تجد العديدُ من البلدان صعوبة في التعافي من الأزمة، مع ضعف الدولة، بعد ما أصبحت الدول الفاشلة سِمَةً أكثر انتشارًا في العالم. كذلك من المرجّح أن تسهم الأزمة في التدهور المستمرّ للعلاقات الصينيّة الأمريكيّة، وفي إضعاف التكامل الأوروبيّ.[4]

1. أبو عيطة، سائد حامد. (2020، 16 آذار). مفهوم "الوباء" ومفهوم "السلاح البيولوجيّ" في قاموس الأمن الدوليّ. جريدة النهار اللبنانيّة.

2. Allen, John; Burns, Nicholas; Garret, Laurie; Haas, Richard N.; Ikenberry, John G.; Mahbubani, Kishore; Menon, Shivshanker; Niblett, Robin; Nye, Joseph S. Jr.; O'neil, Shannon K.; Schake, Kori; Walt, Stephen M. (2020, March20). How the world will look after the Coronavirus Pandemic. Foreign Policy.

3. Ibid.

4. Ibid.

وقد صدقت التوقّعات أنّنا سنشهد عودة الدور الفاعل والمؤثّر للدولة في النشاط الاقتصاديّ، بناء على "النظريّة الكينزيّة" للاقتصاد السياسيّ، بعد فشل السياسات النيو _ ليبراليّة في الحفاظ على معدّل مناسب من الإنتاج المحلّيّ للوسائل والخدمات الطبّيّة التي أصبحت مركّبًا مهمًّا من مركّبات الأمن القوميّ للدول والمجتمعات نتيجة الجائحة، وقد يُفضي هذا إلى تعديل دَور الدولة في العمليّة الإنتاجيّة من جديد. ضربت الجائحة مركز النظام الرأسماليّ العالميّ، بعد أن أصبحت الحلول العلميّة للخروج من الأزمة متضمِّنةً وصفاتٍ من النظام الاشتراكيّ النقيض، عبْر تعزيز دَوْر الدولة المركزيّة لا في توجيه العجلة الاقتصاديّة برمّتها فحسب، بل كذلك في تسخير الأموال العامّة من دافعي الضرائب والشرائح الدنيا والمتوسّطة لإنقاذ كبريات عصب الاقتصاد الرأسماليّ؛ أسوة بما فعله الرئيس السابق باراك أوباما خلال الأزمة الاقتصاديّة العالميّة عام 2008،[5] بما يخالف نظريّات الاقتصاد الليبراليّ الكلاسيكيّة التي ترفض تدخّل الدولة المباشر في الاقتصاد.

تَمكّن فيروس كورونا من إحداث إرباك شديد في الأجهزة الصحّيّة والخدمات الطبّيّة، وفي إيقاف الرحلات الجوّيّة، وفي إيقاف النموّ الاقتصاديّ، ولكن أحد آثاره الممكنة، الذي قد يكون الأكثر ديمومة وعمقًا، هو الدخول في عصر سياسيّ جديد تبرز ملامحه في تثبيت حكم اليمين والقضاء على الديمقراطيّة ببطء، وجعل حالة المراقبة نمط حياة حتّى في بعض الديمقراطيّات.[6]

سوف يرى القوميّون والمناهضون للعَوْلَمة والصقور الصينيّون، بل حتّى الأمميّون الليبراليّون، أدلّة جديدة على قوّة وجهات نظرهم. بفعل الضرر الاقتصاديّ والانهيار الاجتماعيّ اللذَيْن يتكشّفان عن جائحة كورونا، من الصعب رؤية أيّ شيء آخر سوى تعزيز الحركة نحو القوميّة، وتنافس القوى العظمى، والفصل الإستراتيجيّ، وما شابه ذلك.[7] على مدى السنوات القادمة، قد تؤدّي الجائحة إلى تآكل النظام الدوليّ الليبراليّ تآكلًا مستمرًّا، وقد يؤدّي هذا إلى ولادة ديمقراطيّة ليبراليّة بنمط جديد.[8] تُرافِقُ كلّ ذلك زيادة في معدّلات انتشار التيّار الشعبويّ في الولايات المتّحدة وأوروبا، الذي يرفض بشدّةٍ سياساتِ الهجرة والانفتاح الاقتصاديّ غير المنضبط، ويؤيّد فرض رسوم جمركيّة على السلع والبضائع للحفاظ على المنتَجات المحلّيّة، كما فعل الرئيس ترامب مع البضائع الصينية، في إطار سياسات الحماية، لخفض العجز في الميزان التجاريّ بين الولايات المتّحدة والصين الذي يميل إلى صالح الأخيرة.

أستاذ العلاقات الدوليّة في جامعة هارفرد، ستيفان م. والت، يقول إنّ الجائحة ستقوّي هيمنة الدول وتعزّز توجُّهاتها القوميّة، مضيفًا أنّ جميع أنواع الحكومات والأنظمة ستتبنّى إجراءات طارئة لإدارة الأزمة تمنح السلطات سيطرة أكبر لن تتخلّى عنها بسهولة. واعتبر والت أنّ الأمر "الثابت" الوحيد هو أنّه لن تتغيّر تجاذباتُ القوى العالميّة والتنافسُ في ما بينها، ولن يستهلّ فيروس كورونا "عصرًا جديدًا من التكافل العالميّ"؛ شأنه في ذلك كشأن الأوبئة التي اجتاحت العالَم في الماضي. وسينخفض ما وصفه بـ "العَوْلَمة المفْرِطة" مع تحوّل الناس نحو اللجوء لحكوماتهم التي ستسعى مستقبَلًا إلى سدّ الثغرات التي واجهتها خلال تفشّي الوباء بسبب العَوْلَمة.[9]

5. التقرير الأسبوعيّ لمراكز الأبحاث الأمريكيّة. (2020، 23 آذار). وباء الكورونا قد يحوّل أميركا إلى دولة فاشلة يتولّاها العسكر (1 من 2). **التقرير الأسبوعيّ**.

6. عرب 48. (2020، 1 نيسان). هل تصبح كورونا أداة لتثبيت حكم اليمين في العالم؟ **موقع عرب 48**.

7. Ikenberry, John G. (2020, March 20). Democracies will come out of their shell. **Foreign Policy**.

8. فوكوياما، فرانسيس. (2020، 13 تمّوز). الجائحة والنظام السياسيّ... بحاجة لدولة (ترجمة نادر الغول). **موقع قناة الغد**.

9. Walt, Stephen M. (2020, March 20). A world less open, prosperous, and free. **Foreign Policy**.

سوف تُضعف هذه الجائحة من النيو _ ليبراليّة المتطرّفة، وأيديولوجيّة السوق الحرّة التي ابتكرها اقتصاديّون من جامعة شيكاغو (من بينهم: چاري بيكر؛ ميلتون فريدمان؛ جورج ستيجلر). خلال ثمانينيّات القرن الماضي، قدّمت مدرسة شيكاغو تبريرًا فكريًّا لسياسات الرئيس الأمريكيّ الأسبق "رونالد ريچان" ورئيسة الوزراء البريطانية السابقة "مارچريت ثاتشر"، اللذين اعتبرا أنّ الحكومات الكبيرة والمتمدّدة تشكّل عقبة أمام النموّ الاقتصاديّ والتقدّم البشريّ. آنذاك كانت ثمّة أسباب وجيهة لخفض العديد من أشكال الملْكيّة الحكوميّة والتنظيم؛ لكن الذرائع ترسّخت في "ديانة ليبراليّة"، غُرِسَ فيها العداء لعمل الدولة في جيل من المثقّفين المحافظين، ولا سيّما في الولايات المتّحدة.[10]

فداحة الوباء، وسرعة انتشاره، وعدم وجود لقاح حتّى الآن، تمثّل أعباء هائلة على الأنظمة الصحّيّة في الدول الرأسماليّة المتقدّمة، وذاك ما يطرح تساؤلات بشأن دَوْر الحكومات في تلك الأنظمة في توفير الرعاية الصحّيّة الجيّدة لجميع المواطنين، بعد أن سيطر القِطاع الخاصّ والشركات العملاقة التي ترمي إلى تحقيق الربح -في أساس ما ترمي- وتقدّم خدماتها لأصحاب المال.[11] وبما أنّ الاقتصاد العالميّ يعتمد كثيرَ اعتماد على منتَجات الصين الشعبيّة، لا المنتجات الاستهلاكيّة فحسب، بل كذلك المنتَجات الصحّيّة (بما في ذلك الأدوية والعقاقير)،[12] فقد فتح هذا باب النقاش مجدَّدًا بشأن أهمّيّة الإنتاج المحلّيّ وعدم الاعتماد الكلّيّ على الاستيراد الخارجيّ لسدّ الاحتياجات المحلّيّة. أعادت الجائحة التفكير في السياسات النيو _ ليبراليّة التي أدّت إلى بيع أصول الدولة والقِطاع العامّ وشكل الاقتصاد السياسيّ المتّبَع، بعد أن كشفت الأزمة عن عمق الإشكاليّات الناتجة عن الاعتماد الكلّيّ على الاستيراد الكامل للأدوات والأجهزة الطبّيّة والموادّ الغذائيّة، بعد أن سيطرت الصين على أكثر من 80% من إنتاج الموادّ الطبّيّة على المستوى الدوليّ.

ثانيًا

مستقبل الاقتصاد الليبراليّ في ضوء الجائحة.

تسارُع انتشار جائحة كورنا في ظلّ شحّ المعرفة وانعدام اليقين تحدّى النظام الاقتصاديّ الرأسماليّ (الاقتصاد الحرّ)، وجلب له انتقادات حول نجاعته ومدى ملاءَمته في الأزمات ومدى تأثيره على تعميقها، وبحسب مايك ديڤيس فإنّ الڤيروس وضع الرأسماليّة أمام فوّهة المدفع، وتحوّلت أزمة الكورونا لوحشٍ تغذّيه الرأسماليّة.[13]

سيدخل عامُ 2020 كُتُبَ التاريخ بوصفه عامًا لم يكشف عن فشل في أجهزة الصحّة العامة فحسب، بل كذلك بوصفه عامًا أماط اللثام عن النظام الرأسماليّ النيو _ ليبراليّ وعن الركود الجيو _ سياسيّ في هذا القرن.[14] وتتنبّأ جميع المؤشّرات بأنّ مستقبل الاقتصاد العالميّ يبدو معقَّدًا، لأنّه لا أحد يعرف ما ستؤول إليه إسقاطاته الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة الطويلة الأمد. وفي هذا الصدد، يتنبّأ كِنِث روجوف، كبير اقتصاديّي صندوق النقد الدوليّ سابقًا، بأنّنا نتّجه نحو ركود عالميّ عميق، لم يلاحَظ نظيرٌ له منذ

10. Fukuyama, Francis. (2020, July/August). The pandemic and political order: it takes a state. **Foreign Affairs**.

11. عربي بوست. (2020، 23 آذار). كيف أسهمت الرأسماليّة المتوحّشة في تفشّي كورونا؟ قد نكون وصلنا لنهايتها. **عربي بوست** (نقلًا عن "إنْ ذيس تايمز").

12. مراكز الأبحاث الأمريكيّة. (2020، 20 آذار). وباء الكورونا قد يحوّل أميركا إلى دولة فاشلة يتولّاها العسكر. **التقرير الأسبوعيّ لمراكز الأبحاث الأمريكيّة.**

13. Davis, Mike. (2020, March 20). The Coronavirus crisis is a monster fueled by capitalism. **IN THESETIMES**.

14. Cherkaoui, Mohammed. (2020, March 3). The shifting geopolitics of Coronavirus and the demise of neoliberalism (part 1). **Al-Jazeera Center for Studies.**

الكساد الكبير، على الرغم من أنّ سرعة المغادَرة ستعتمد على كيفيّة تطوُّر الڤيروس واستجابة الأنظمة الصحّيّة له.[15]

للأزمات الكبرى عواقب وخيمة، وفي الغالب تكون غير متوقَّعة. هذا ما يقوله فرانسيس فوكوياما؛ ويرى أنّ الكساد الكبير حفّز "الانعزاليّة والقوميّة والفاشيّة والحرب العالميّة الثانية، لكنّه أدّى أيضًا إلى الصفقة الجديدة، وصعود الولايات المتّحدة كقوّة عظمى عالميّة"، ويحذّر من التداعيات السلبيّة للأزمة على المستوى الاقتصاديّ بقوله: "من الناحية الاقتصاديّة، ستعني الأزمةُ التي طال أمدها المزيدَ من إخفاقات الأعمال والدمار للصناعات مثل مراكز التسوّق الكبرى والسفر". وبنظرة أكثر تشاؤميّةً يرى فوكوياما أنّه "مع انتهاء أكثر مراحل الأزمة إلحاحًا ومأسويّةً، ينتقل العالم إلى فترة طويلة من الكساد المحبِط".[16]

عند مراقبة ردود الفعل العالميّة على الوباء، نلاحظ انتشار ڤيروس آخر بالتوازي مع "كوڤيد-19"؛ وهو إعادة تأميم عالميّة لجميع السياسات النيو _ ليبراليّة تقريبًا، بما في ذلك حرّيّة الحركة، ومساعدة حكوميّة للشركات والعمّال، لم يكن بالإمكان التفكير فيها حتّى فيما مضى؛ ربّما نشهد اقتراب نهاية شائنة لأربعة عقود من سياسات السوق الحرّة الاقتصاديّة، والعَوْلَمة غير المقيّدة،[17] خلافًا للأزمة الماليّة العالميّة عام 2008، والتي كانت في معظمها صدمة طلب كلّيّ سالب كبير، فإنّ الركود القادم على الأرجح سيكون بسبب صدمات عرض كلّيّ سالب ودائم نابعة من التجارة الأمريكيّة الصينيّة وحرب التكنولوجيا.[18]

صندوق النقد الدوليّ أعلن أنّ وباء "كوڤيد-19" يدفع بالاقتصاد العالميّ في اتّجاه ركود عميق في العامَيْن 2021/2020، متوقّعًا تراجع الناتج العالميّ بنسبة تبلغ 3%. وبحسب تقرير آفاق الاقتصاد العالميّ الصادر عن صندوق النقد، سيكون في مقدور الاقتصاد العالميّ تحقيق انتعاش بنسبةٍ مقدارُها 5.8% في العام 2021، إذا أُفلِحَ في احتواء الڤيروس وعادت الحركة الاقتصاديّة إلى طبيعتها. ولتقريب حجم الخسارة قال الصندوق: "خسارة الاقتصاد العالميّ تُوازي حجمَ اقتصادَيْ ألمانيا واليابان".

فيما كانت التوقّعات الاقتصاديّة لمنظّمة التعاون الاقتصاديّ والتنمية لعام 2020 تتنبّأ بسنة من النموّ الثابت إن لم يكن بالنموّ المتزايد،[19] جاء تفشّي ڤيروس كورونا وسبّب صدمة كبيرة للاقتصاد العالميّ؛ فقد خفّضت المنظّمة توقّعاتها إلى النصف؛ من 2.9% إلى 5.1%، وقد تسوء الأمور أكثر إلى درجة تسجيل عجز في الدخل العالميّ بقيمة 2,000 مليار دولار، ممّا يعني انهيار الاقتصاد العالميّ بصفة كلّيّة، على نحوٍ يماثل الكساد الهائل الذي حصل في أعقاب الأزمة الاقتصاديّة العالميّة سنة 1929، حيث لم تَسْلم منها أيّ دولة -سواء في ذلك الدولُ المتقدّمةُ وتلك الناميةُ-، وذلك بحكم الترابط العالميّ بين اقتصاديّات الدول.[20]

15. العيدودي، بدر. (2020، 7 أيّار). هكذا سيكون شكل الاقتصاد الذي سيَعقب جائحة كورونا. **الجزيرة: مدوّنات**.

16. Fukuyama, Francis. Ibid.

17. عرب 48. (2020، 20 آذار). جائحة كورونا قد تعيد تشكيل النظام العالميّ. **موقع عرب 48** (بتصرّف عن مقال كارنيلوس ماركو).

18. Roubini, Nouriel. (2019, Aug 22). The anatomy of the coming recession. **Project Syndicate.**

19. منظّمة التعاون الاقتصاديّ والتنمية: هي منظّمة دوليّة تهدف إلى التنمية الاقتصاديّة، وإلى إنعاش التبادلات التجاريّة. تتكوّن المنظّمة من مجموعة من البلدان المتقدّمة التي تقبل مبادئ الديمقراطيّة التمثيليّة واقتصاد السوق الحرّ. أُسّست عام 1961، ومقرّها باريس.

20. الوردي، فاطمة. (2020، 3 نيسان). تداعيات ڤيروس كورونا على الاقتصاد العالميّ. **إنستيتيوت أماديوس**.

رصدت دراسة حديثة خسائر هائلة سيكابدها الاقتصاد العالميّ بسبب تفشّي فيروس كورونا والإجراءات التي اتّخذتها الحكومات للحدّ من انتشاره. وقالت الدراسة التي أعدّها باحثون من جامعة "سيدني" الأستراليّة إنّ تفشّي الوباء وتدابير الحدّ من انتشاره كلّف الاقتصاد العالميّ 3.8 تريليون دولار (3 تريليونات جنيه إسترلينيّ)، وتسبّب في فقدان 147 مليون شخص لوظيفته، وَفقًا لِما أوردته صحيفة "ديلي ميل" البريطانيّة.

وأشارت الدراسة إلى أنّ قِطاع صناعة السفر هو الأكثر تضرُّرًا، بسبب إلغاء الرحلات الجوّيّة وإغلاق البلدان لحدودها أمام الزوّار، وبخاصّة في آسيا وأوروبا والولايات المتّحدة. وقالت "ديلي ميل" في تقريرها إنّ العلماء الأستراليّين ابتكروا نموذجًا للكمبيوتر يتمكّن من رصد آثار الوباء الاقتصاديّة على الاقتصاد العالميّ وخسائر كلّ دولة على حدة، ووجدوا أنّ أوروبا والولايات المتّحدة والصين كانت أكثر المناطق تأثُّرًا بشكل مباشر، وأنّ قِطاعات النقل والسياحة هي التي ضُرِبت على الفور[21]

بعد مرور قرابة عام على انتشار جائحة كورونا، تَمَكَّن الفيروس من تغيير جوهر الاتّجاهات الاقتصاديّة العالميّة، ممّا قد يؤدّي إلى تسارُع التغيير الذي بدأ بالفعل، وهو الحياد عن العَوْلَمة المتمحورة حول الولايات المتّحدة، نحو عَوْلَمة متمركزة حول الصين، بعد أن فقد الأميركيّون ثقتهم بالعَوْلَمة والتجارة الدوليّة، وذلك أنّ اتّفاقيّات التجارة الحرّة أصبحت تضرّ بالولايات المتّحدة من منظور التيّار القوميّ الشعبويّ. في المقابل، لم تفقد الصين ثقتها بالتجارة الدوليّة، بل تعمل على تعزيز مكانتها في النظام الدوليّ على المستويَيْن السياسيّ والاقتصاديّ.

خاتمة

وضعت جائحة كورونا الدولة والاقتصاد الليبراليّ الحرّ على المحكّ، في ظلّ الآثار الكارثيّة التي نتجت عن الفيروس والتي سيكون لها آثار طويلة الأمد على الدول والمجتمعات كافّة، إذ إنّ استمرار الأزمة يبشّر بقواعد وأدوار جديدة للدولة، ونمط جديد للاقتصاد السياسيّ، عبر التخلّي تدريجيًّا عن السياسات النيو ـ ليبراليّة، والعودة تدريجيًّا إلى تدخّل الدولة تدخُّلًا محدودًا وإيجابيًّا في عمليّة الإنتاج، بغية الحفاظ على معدّل مناسب من الإنتاج المحلّيّ، والتقليل من الاعتماد على الاستيراد للسلع الأساسيّة والمستلزمات الطبّيّة، والإشراف على تقديم الخدمات الرئيسيّة (كالصحّة والتعليم -على سبيل المثال) بصورة مجّانيّة بعد ما أصبحت خدمة مدفوعة الأجر؛ فقد أثبتت الأحداث الناتجة عن فيروس كورونا وجود صعوبة في الاستمرار في اتّباع سياساتٍ تُقلِّل من دَوْر الدولة ككيان سياسيّ في ظلّ التحدّيات الكثيرة الناجمة عن الجائحة في عصر قد يشهد انتشار العديد من الفيروسات الضارّة.

* د. منصور أبو كريّم، باحث في الشؤون السياسيّة والعلاقات الدوليّة.

21. السنجري، أنس. (2020، 12 تمّوز). بالأرقام.. حصيلة خسائر الاقتصاد العالميّ جراء كورونا. **موقع عربي 21**.

الرجوع لقائمة المحتويات

الرأسماليّة، المجتمع، والتاريخ: ملاحظات في فهم الوباء

محمّد قعدان*

تمهيد

السؤال الذي أودّ أن أطرحه تمهيدًا للمقالة: ما هو الوباء اجتماعيًّا؟ أحاول النظر إلى الوباء باعتباره جزءًا من شبكة علاقات تاريخيّة، تتشكّل وتتغيّر على نحوٍ دائم، لإنجاز وتحقيق أنماط عيش جديدة.

في هذا الصدد، سأكتب عن بدايات الرأسماليّة تاريخيًّا واجتماعيًّا، بغية محاولة فهم التغيُّرات التي حصلت في "البنى الحياتيّة اليوميّة" على حدّ تعبير فرنان بروديل. وأرى أنّه حينما نسير ونحفر في العلاقات التي شكّلت هذا المصطلح الضخم كَـ "الرأسماليّة" بعلاقته مع المرض والناس والمعاش، نستطيع بدورنا أن نفهم الوباء الحاصل في أيّامنا، ونعيد قراءة تجربتنا من خلال عدسة مختلفة.

علاوة على ذلك، محاولتي لفهم الوباء القديم (كذاك الذي تفشّى في القرن الرابع عشر -على سبيل المثال) تراه بالطبع مختلفًا عمّا نراه ونشعر به اليوم، على الرغم من البنى الإنسانيّة العميقة كالطعام والملبس والمرض والحركة، إلّا أنّنا نعيش في تشكيلات وبنى عالميّة، وقد تمكّن الوباء من اختراقها، وبالتالي نقَلَ التجربة إلى العالم بأسره، ويتضمّن ذلك تجربة التعافي، أو محاولة إيجاد اللقاح، ومسألة المراهنة على المستقبل الأفضل.

وسأحاول وضع السوق وتطوُّره تاريخيًّا في سياق تطوّر الرأسماليّة وأثره على الرعاية الصحّيّة، وإخفاق هذه العلاقة كما نضجت في السياق الحديث الرأسماليّ. وفي هذا الخصوص، أحاول النظر إلى نموذج علاقات مغاير، على نحوِ ما تبلور في بداية الاتّحاد السوفييتيّ، ولا أعني أنّه نجح في صياغة توليفة لصالح المواطن ولصالح تطوير الرعاية الصحّيّة الجماهيريّة، إلّا أنّها مُهمّة لفهم نموذج علاقات تاريخيّ.

بدايات الرأسماليّة

أوضحَ المؤرّخ الفرنسيّ فرنان بروديل في كتابِهِ القصير «ديناميكيّة الرأسماليّة» أمرَيْن: أوّلهما أنّه تعب من كتابة مشاريعه التأريخيّة الكبيرة، ويميل إلى إتمام ملخّص قصير، يحمل أهمّ الأفكار والملاحظات المنهجيّة حيال الرأسماليّة، قاصدًا التاريخ الأوروبيّ الحديث، وما حمل من نهضة وتخلُّف في آن. ثانيهما أنّ حياة الناس، نمط عيشهم، ملابسهم، طعامهم، مرضهم، هذه هي المادّة المعرفيّة. إثر هذا، وضع لنا قاعدة في التعاطي مع التفاصيل المعيشيّة وتكوينها للأحداث التي نتخيّلها عظيمة (على سبيل المثال: الرأسماليّة)، وتلا ذلك شرحه المنهجيّ لديناميكيّة الرأسماليّة.[1]

الملاحظة الأولى

بدايةً، لفت بروديل إلى الطاعون الأسود أو الموت الأسود في أوروبا، مبتغيًا إيضاح أنّ المرض في القرن الرابع عشر الميلاديّ قتل جيلًا، وأعدم الكتلة السكّانيّة الأوروبيّة. وهنا تبدأ مرحلة تاريخيّة أخرى، انطلقت على وجه التحديد بعد مئة عام كما يرويها بروديل بعد قرون.[2]

وقصدَ بروديل أن يحيلنا إلى التغيُّرات الاجتماعيّة في الطعام وأنماط المعيشة التي أعادت دائرة الإنتاج في أوروبا، وهذا التحليل نراه معتمَدًا أيضًا في إشارة چرامشي إلى تعريف الألمانيّ فويرباخ للبشر:

1. بروديل، فرنان. (2008). ديناميكيّة الرأسماليّة (ترجمة شفيق محسن). بيروت: دار الكتاب الجديد المتّحدة. ص 11-37.
2. المصدر السابق.

«الإنسان هو ما يتناوله من طعام». وعقّب چرامشي أنّ مراد فويرباخ هو استعادة المجتمع في فهم ذواتنا الإنسانيّة، وأنّ الطعام في هذه العبارة يعبّر عن المجتمع والاقتصاد والتاريخ.[3] وأكملَ بروديل شارحًا أهمّيّة تعقُّب تحوّلات الطعام في فهم الرأسماليّة، متسائلًا: هل من الممكن تخيُّل تاريخ أوروبا من غير حيواناتها الأليفة، ومحاريثها، ودوابّها وعرباتها؟ أليس القمح الذي يُتعب الأرض أحدَ تشكيلات الحضارة؟ ونظر بروديل إلى مُنتَجات الطاعون الأسود أو الموت الأسود في أوروبا، وأهمّ ما اطلّع عليه النموّ السكّانيّ منذ عام 1450 تحديدًا، فوجد فيها غايته: بدايةَ مرحلة «الدائرة التاريخيّة» لأوروبا الرأسماليّة، واستكشافاتٍ واستعمارًا وتقنيّاتٍ وبحارًا -هذه هي أواصر الدائرة التاريخيّة.[4]

أسهمت سيرورة تطوُّر الكتلة السكّانيّة الأوروبيّة في إحداث تغيرات تاريخيّة جذرية. وبالتالي، علينا أن نرى العالَم اليوم في جميع مواضيعه وأموره ومأكولاته وملابسه وأنشطته الاجتماعيّة لفهم ما يجري فعلًا في هذا الزمن، لصياغة مقولة تُعيننا في فهم الكتل السكّانيّة المتعدّدة في العالم ومعاناتها، وتعميق السؤال المتداوَل: أليس هناك اليوم من يعيش في نظام بيولوجيّ /بيئيّ غير صحّيّ بتاتًا، وتتفاوت درجات أنماط معيشة البشر، وهو ما يعني التفاوت في المعاناة؟ وكيف ننظر إلى أصول هذا التفاوت الجاري؛ إلى استمراريّة هذا التفاوت؟

التفاوت الذي أقصده راهنًا متعلّق بالطرق الاقتصاديّة الرأسماليّة في شكلها النيو_ليبراليّ الحاليّ، التي تعزّز هذا التفاوت، إلّا أنّني أودّ أن أشير إلى جذورها التاريخيّة كما تحدّث عنها بروديل، وما لاحظه من حيث إنّ نموّ السوق الأوروبيّ واقتصاد المبادلة كان سبب تشكُّل بنْيةٍ اجتماعيّة في أوروبا فاحشةِ الثراء، ولكن السؤال هو: ما هو السوق الذي يتحدّث عنه بروديل؟ وكيف ننظر إلى أثر السوق على نمط معيشة الناس، أو علاقة الناس في قوّة السوق وتماسُكه؟

تطوُّر السوق تاريخيًّا

بداية السوق في أوروبا منذ القرن الخامس عشر الميلاديّ، على سبيل المثال، كانت من خلال حِرَفيّ يتنقّل بين بلدة وأخرى مقدِّمًا خدماته كمنظّف للمَداخن. يجد بروديل أنّ هذه العمليّة الاقتصاديّة، مَهما كانت ضعيفة، هي جزء من عالم السوق. في المقابل، لو عاد الحِرَفيّ إلى الفِلاحة في الريف، مرتبطًا ماديًّا واقتصاديًّا بالأرض، لَما ظهرَ السوق. نعني بذلك أنّ العودة إلى الريف هي تخطٍّ للسوق على نحوٍ معاكس. والقصد أنّ الحِرَفيّ خلال عودته إلى الريف يكون قوّة مضادّة للسوق.[5]

الملاحظة الثانية

أرى أنّ السوق الضعيف في تلك الفترة، حين كان الإنتاج ينفد في الاستهلاك الذاتيّ للعائلة والقرية، ولا يصل أبدًا إلى السوق، كان إشارة إلى نمط معيشة مختلف جذريًّا عمّا نعيشه اليوم. ونستطيع كبداية أن نلمحه في السلعة كعلاقة إنسانيّة، تبادليّة وَ/أو استعماليّة. الديالكتيك أو التضادّ بين العلاقتين كان محرّكًا مهمًّا لتطوّر السوق في أوروبا وتطوُّر المَعارض التجاريّة والبورصات، ثمّ تطوُّر الرأسماليّة.

فهْمُ الواقع الذي نعيشه اليوم يتطلّب منّا أن نَعِيَ ترتيبات الحياة اليوميّة، على نحوِ ما يسمّيها بروديل، أو -على ما أرى- من الملائم اليوم أن نسمّيها بُنى الحياة اليوميّة، والقصد من ذلك الوعي بشأن البنْية الاقتصاديّة من خلال العلاقات اليوميّة التي يعيشها الناس، هذه العلاقات التي تشكّلت في أوروبا منذ الطاعون الأسود أو الموت الأسود، حين ماتت كتلة سكّانيّة بحركتها الاقتصاديّة وأنماطها الاجتماعيّة، لتنمو كتلة سكّانيّة أخرى مكثّفة وأكثر عددًا. تتشكّل في هذا السياق بوادر الرأسماليّة الحديثة، بحركتها

3. غرامشي، أنطونيو. (2018). **قضايا المادّيّة التاريخيّة** (ترجمة فوّاز طرابلسي) ط. ثانية. منشورات المتوسّط. ص 57.

4. بروديل، فرنان. مصدر سابق.

5. المصدر السابق. ص 37-44.

الاقتصاديّة، وأنماطها الاجتماعيّة. يرى بروديل في العامِل الديمچرافيّ /السكّانيّ الذي تبلور في أوروبا أحدَ مكوّنات وتشكيلات العالَم الجديد بأنماطه، وهنا ننظر إلى سقوط غرناطة، في نهاية القرن الخامس عشر الميلاديّ، كتحصيل للكثافة السكّانيّة في أوروبا بعد النهوض إثر الوباء أو الموت الأسود. وبالتالي يذكر بروديل أنّ شكل الحرب أو الاعتداء على أملاك المسلمين في غرناطة، وفي الأندلس على وجه العموم، أقرب إلى منظومة "الاستعمار الاستيطانيّ". وهكذا هو شأن الأنماط التي تتركّب وتتشكّل في نتيجة عوامل كثيرة ومن أهمّها الوباء، كمحرّك جديد للعالَم الاجتماعيّ.[6]

وطرحَ الاقتصاديّ وعالِم الاجتماع لودفيج لاكمان مفهوم «تراكم الثروة» باعتباره أحد المحرّكات الاقتصاديّة لتدفّق المال والدخل والثروة في السوق الحديث، قاصدًا تحديد الحركة الاقتصاديّة التي تتّسم بها الرأسماليّة، موضّحًا أنّ «تراكم الثروة» لا يتعلّق إلّا بالموارد التي تضخّ المال. وهكذا يتبيّن لنا أنّ معاني الأرض والطبيعة والناس لا تَكون إلّا في ارتباطها بالسوق وَ «تراكم الثروة». بالتالي، الثروة لا تُحدَّد وَفق الملْكيّة، بل من خلال علاقتها بالسوق وإعادة إنتاج ذاتها.[7]

إذًا، السوق -بالمعنى الرأسماليّ للكلمة- أصبح مركز نمط معيشة الناس، ويعبّر عن التغيُّرات فيها. لذا، السؤال هو: هل الخروج من ديناميكيّة الرأسماليّة، كما حدّدها لنا فرنان بروديل، مُمكن في فترة الڤيروس الجديد؟ وكيف نستطيع فهم ڤيروس كورونا، من خلال علاقتنا بالسوق، في حياتِنا اليوميّة -طعامنا؛ ملبسنا؛ متاجرنا؟

السوق يحدّد نمط معيشة الناس، ويعزلهم عن السياسة، ونجد ذلك في مركزيّة أو ثبات «تراكم الثروة». وعلى سبيل التحقّق، نرى أنّ تصريح الرئيس الأميركيّ دونالد ترامپ، إبّان أزمة النفط في نيسان الماضي، أنّ خفض إنتاج النفط في الولايات المتّحدة فُرِض عبر معايير، ومُحدِّدات، وحركة السوق، هو ممّا يبيّن مدى قوّة السوق (في الهيمنة على حياتنا المادّيّة كما عرّفها بروديل -الطعام، والملبس، والمرض وغيرها). المقصود أنّ سيرورة هيمنة السوق أصبحت منعزلة عن الطبقة المهيمنة، بل إنّ مُحدّدات السوق هي المهيمنة؛ وهنا تتبدّى ملامح ما قصده بروديل، حين ننظر إلى الرأسماليّة من خلال ديناميكيّتها التي تصوغ حياتنا المادّيّة.

الصحّة والسوق والخروج من الأزمة

الملاحظة الثالثة

في بداية الحديث عن العلاقات بين الصحّة العامّة الجماهيريّة -من جهة-، والسوق والرأسماليّة وحركة المال -من جهة أخرى-، يتكشّف تناقض معرفيّ أساسيّ بينهما؛ بين تحقيق ربح والتشديد على العلاقات التبادليّة في مكوّنات السوق -من ناحية-، والمعاني التي تشكّل فيها مفهوم الصحّة العامّة وتحقيق شروط اجتماعيّة وبيئة صحّيّة من خلال إتاحة الخدمات -من ناحية أخرى-. وحدّد الاقتصاديّ كِنِث أَرُّو (الحائز على جائزة نوبل) أسبابًا لفشل السوق في التعاطي مع الرعاية الصحّيّة، إلّا أنّ السبب المتعلّق بموضوعنا "يتمثّل في أنّ من هم في أمسّ الحاجة إلى الرعاية هم الأقلّ قدرة على تحمُّل تكلفتها. في المقابل، أولئك الذين يحتاجون إلى رعاية أقلّ لديهم الكثير من المال".[8] ومن ثَمّ يوضّح أَرُّو إخفاقات العلاقة بين السوق والرعاية الصحّيّة، التي تتضمّن كذلك إنشاء شركات توفّر هذه الخدمات، إلّا أنّها تعمل على متابعة الحصول على الدفع والأموال. وهذا كان أحد الإخفاقات، بما أنّ مسألة المرض

6. بروديل، فرنان. (1993). **المتوسّط والعالم المتوسّطيّ في عهد فيليب الثاني**. بيروت: دار المنتخب العربيّ. ص 238-264.

7. لاكمان، لودفيج. (2013). "اقتصاد السوق وتوزيع الثروة". لدى: توم، جي، بالمر. (محرّر). **أخلاقيّات الرأسماليّة** (ترجمة محمّد خضر). دار كلمات عربيّة للنشر والتوزيع. ص 105-117.

8. Arrow, Kenneth J. (1963, December). Uncertainty and the welfare economics of medical care. **The American Economic Review**, 53 (5). Pp. 941-973.

والوباء هي ليست فرديّة بل إنّها اجتماعيّة. بعبارة أخرى، عدم توافر أموال للعلاج لدى أفراد فقراء يحوّلهم إلى عنصر تهديد للبيئة ونقل للعدوى، وهو ما يجعل مجتمعًا كاملًا في عداد المرضى. من هنا يؤكّد كِنِث أَرُّو أهمّيّة إعادة تعريف الرعاية الصحّيّة.[9]

وعلينا كذلك أن ننظر إلى التجربة الأولى، لإعادة تعريف الرعاية الصحّيّة، في الفترة الحديثة، عبْر بناء جسم صحّيّ حكوميّ، حينما تعمّقت الأزمات والكوارث الصحّيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة على الإمبراطوريّة الروسيّة مع بداية الحرب العالميّة الأولى، إذ بدأت بوادر لبناء جسم صحّيّ يجمع كلّ الإدارات الصحّيّة التي كانت غيرَ منظمّةٍ، ومبعثرةً، ولا تنسّق في ما بينها، في عام 1916، علمًا أنّ هذه الإدارات الصحّيّة في مقاطعات الإمبراطوريّة الروسيّة لم تكن متاحة للجميع؛ كانت متاحة للطبقات المالكة، والبرجوازيّة الصاعدة، وغير متاحة للفلّاحين "الأقنان" أو العمّال.

المبادرة الأولى التي ظهرت في عام 1916 أُخِذت على محمل الجِدّ مع الثورة البلشفيّة في العام التالي، وبناء جسم موحّد صحّيّ على مستوى دولة الاتّحاد السوفييتيّ الحديثة العهد. وتُبيّن هذه التجربة العلاقاتِ التاريخيّةَ لتَشَكُّل نظام صحّيّ، مع تهميش لعلاقته بالسوق.

بدأ الأمر من خلال فرض نظام مركزيّ صحّيّ لجميع المقاطعات، والإدارات الصحّيّة؛ على أساس خطّة واحدة لمواجهة الأوبئة المتعدّدة المتفشّية في المجتمع الروسيّ (نحو: الكوليرا، والتيفوس، وأمراض مُعْدِية أخرى). وأقرّ الجسم الحكوميّ الجديد مجّانيّة العلاج، وإتاحته للجميع. وكانت هذه نقطة مفصليّة في المنظور إلى العلاقة بين الصحّة والمجتمع، ولنقُلْ إنّها بدأت تتحكّم وتحفّز معالجة اجتماعيّة وجماهيريّة للأوبئة، ومحاولة إزالة آثارها وقوّتها في ديناميكيّة الحياة الاجتماعيّة.

وبادر الاتّحاد السوفييتيّ، في فترة الأعوام 1918-1924، إلى تشكيل أجسام فرعيّة ولجان قادرة على الكشف عن بؤر الأوبئة وَفقًا لإحصائيّات منهجيّة، وقُدرات عالية في التنظيم والتنسيق على مستوى الدولة، لمنع الأوبئة وإزالتها بالموازاة مع نظام طبّيّ تعليميّ متاح للجميع، وبالتالي قدّمت منظورًا أساسيًّا للتعاطي مع الأوبئة، من خلال تقليل أثرها على السياسة والمجتمع.[10]

إذًا، السوق من الممكن أن يكون طوعًا لمصالح أهمّ وعامّة وجماهيريّة، على العكس من النماذج الحاليّة التي تقدّمها الولايات المتّحدة وغيرها من الدول الرأسماليّة؛ النموذج المتّبَع في الدول الرأسماليّة لن يتمكّن من مكافحة الأوبئة النشطة، لأنّ تلك الاستثمارات تجفّ فورًا وتنخفض مع تلاشي الأزمة في بؤر معيّنة، ممّا يعني سحب التمويل وإيقاف البحث.[11]

ختامًا، يمكننا القول إنّ الوباء والصحّة والسوق هي جزء من الحياة الاجتماعيّة التاريخيّة ضمن سياقات سياسيّة، وأرى التعاطي معها أو مكافحتها ممكنًا وبطُرق تخدم الوجود الإنسانيّ، على العكس ممّا يتولّد عنه التعاطي معها من أجل استمرارها وإدارتها وكسب الأرباح من أزماتها.

* محمّد قعدان، كاتب مقالات والبحث القصير في عدّة مراكز دراسات وصحف ومنصّات إلكترونيّة. أسهَمَ في تأسيس "منتدى إدوارد سعيد" في جامعة تل أبيب للعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة والفنون.

9. McKee, Martin, & David, Stuckler. (2012). The crisis of capitalism and the marketisation of health care: the implications for public health professionals. **Journal of public health research**, 1 (3). Pp. 236-239.

10. Reshetnikov, Vladimir A.; Ekkert, Natalia V.; Capasso, Lorenzo; Arsentyev, Evgeny V.; Mikerova, Maria S., & Yakushina, Irina I. (2019). The history of public healthcare in Russia. **Medicina Historica**, 3 (1). Pp. 16-24.

11. Boros, Laszlo. (2017). **Pharma's broken business model: An industry on the brink of terminal decline (Comment)**. Researchgate.

الرجوع لقائمة المحتويات

Jadal جدل

.2
الكورونا والفلسطينيّون في إسرائيل

الأطبّاء العرب في إسرائيل – رؤية من الداخل

أسامة طنّوس *

يستعرض هذا المقال، من منظور طبيب فلسطينيّ، أشكال تمثيل الأطبّاء الفلسطينيّين في الجهاز الصحّيّ الإسرائيليّ خلال جائحة "كوفيد-19"، إلى جانب الديناميّات التي ظهرت في هذا الجهاز إبّان حالة الطوارئ الصحّيّة العامّة. ويجادل المقال بأنّ جهاز الرعاية الصحّيّة، وهو ركيزة مهمّة من ركائز المشروع الاستعماريّ الاستيطانيّ، وبناه التحتيّة، يجري تخييله بسذاجة بوصفه مجالًا محايدًا وغير سياسيّ. وفي الوقت الذي احتُفيَ فيه بميدان محاربة كوفيد - 19 بوصفه ميدان تآخي الفلسطينيّين من حمَلة الجنسيّات الإسرائيليّة مع أقرانهم من اليهود، وخُيِّل كبوّابة لتحقيق مكاسب سياسيّة أو مساواة للمواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل، فقد ظلّ العمل جاريًا على تطبيع كلّ من العسكريتاريا الاستيطانيّة، ورموز الاستيطان، وسيطرة المستوطنين.

في أواخر نيسان المنصرم (2020)، في إطار الاحتفالات بيوم الاستقلال الثاني والسبعين لإسرائيل، اخترقت طائرات مقاتلة تابعة لسلاح الجوّ الإسرائيليّ زرقة السماء. أدّت هذه المقاتلات مناورات أكروباتيّة في الجوّ تحيّة للطاقم الطبّيّ الذي يحارب كوفيد-19 في ظلّ حالة الطوارئ الصحّيّة العامّة.[1] عبر تلك المناورة، تمنّى سلاح الجوّ الإسرائيليّ لِـ "جميع [أبناء] شعب إسرائيل" السعادة ويوم استقلال سعيدًا،[2] بينما لم يوضع المركز الطبّيّ للجليل الغربيّ، الذي يديره د. مسعد برهوم (أوّل فلسطينيّ يُعيَّن مديرًا لمشفًى إسرائيليّ) على خطّ السير الأوّليّ لطيران المقاتلات في استعراضها. وهكذا، أرسل برهوم رسالة غاضبة موجّهة إلى قائد سلاح الجوّ، معبّرًا فيها عن شعوره بالحيرة لغياب مركز الجليل الغربيّ عن مسار خطّ الطيران، وبأنّ هذا الغياب قد مثّل ازدراءً قاسيًا لطاقم المستشفى الذي يشكّل ضربًا من "الفسيفساء الدينيّة والثقافيّة الجميلة"،[3] على حدّ تعبير الرسالة، من اليهود والمسلمين والدروز والمسيحيّين. وقد وصف برهوم في رسالته التعاونَ بين كلٍّ من المركز الطبّيّ والجيش الإسرائيليّ معتبرًا إيّاه تعاونًا مذهلًا، حيث استذكر برهوم كيف خدم المركز، بإخلاص، احتياجات الجيش في الأيّام العاديّة وفي حالات الطوارئ، مستشهدًا بأمثلة حديثة مستقاة من عمليّة درع الشمال، ومعالجة المشفى العسكريّين السوريّين الجرحى البالغ عددهم ثلاثة آلاف ممّن أُحضِروا إلى إسرائيل ليتلقّوا العلاج في إطار السياسة التي تطلق عليها تل أبيب اسم "عمليّة حسن الجوار".[4] ختامًا، أنهى برهوم رسالته بالقول إنّه قد اكتوى من سلوك سلاح الجوّ الإسرائيليّ، وأعرب عن أمله في تعديل الغبن الحاصل.[5]

خلال جائحة كوفيد-19 في إسرائيل التي تُشنّ فيها حرب مجازيّة على الفيروس، تدور معركة حقيقيّة

1. i24NEWS. (2020, April 29). Israel dedicates Independence Day flyover to nation's hospitals. **i24NEWS**.

2. بموجب القانون الإسرائيليّ، يُمَيَّز بين المصطلحَيْن "مواطني إسرائيل" وَ "شعب إسرائيل". فالاصطلاح الأخير يُستخدم فقط للإشارة إلى السكّان اليهود الذين يعيشون داخل إسرائيل، وأحيانًا يشمل هؤلاء واليهود الذين خارج إسرائيل. وهذا يعكس التوتّرات والتناقضات في تعريف إسرائيل لنفسها دولة يهوديّة ديمقراطيّة لا بوصفها دولة مواطنيها. للاستزادة في هذا الشأن، راجِعوا:
Bishara, Azmi. (2017). Zionism and equal citizenship: Essential and incidental citizenship in the Jewish state. In Nadim N. Rouhana, and Sahar, S. Huneidi. (Eds.). **Israel and its Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state** (pp. 137-156). Cambridge: Cambridge University Press.

3. شطاين، أفرايم. (2020، 27 نيسان). نهاريا تطالب بتحيّة جوّيّة لمقاتلي الكورونا. **مركاز هَعِنْيانيم**. (بالعبريّة).

4. المصدر السابق.

5. في وقت لاحق، استجاب سلاح الجوّ الإسرائيليّ للتظلّم، وفي الساعة 12:35 من مساء الـ 29 من نيسان (2020)، حلّقت أربع طائرات من طراز T-6 تيكسان فوق المستشفى وأماكن أخرى، ورسمت قلوبًا في السماء، في الوقت الذي لوّح فيه طاقم المستشفى بالأعلام الإسرائيليّة.

في ميدان آخر، هو ميدان الاستعمار الاستيطانيّ، وحدود هذه الحرب تُرسم من خلال عمليّة الضمّ الوشيكة للأرض.

تقودنا هذه الملاحظة إلى طرح التساؤل التالي: ما الذي يحصل للطبيب المتحدّر من المجموعة السكّانيّة الأصلانيّة حينما يجد نفسه، وقد أجبره مفهوم الحرب على استرجاع ذكريات مؤثّرة من عمليّات العدوان على غزّة والضفّة الغربيّة ولبنان، ما الذي يحصل له حينما يجد نفسه عالقًا في توصيف "أخوّة السلاح"، مع طبيب ينتمي إلى المجموعة العرقيّة المهيمنة، وهو الذي لا تُعَدّ الحرب بالنسبة إليه مجرد استعارة، بل إنّها ممارسة يوميّة تتّسق اتّساقًا وثيقًا مع حياته، إذ إنّ مسيرته المهنيّة تتعرّج بين الإعدادات المدنيّة والعسكريّة نظرًا للخدمة العسكريّة الإلزاميّة النظاميّة والاحتياطيّة؟[6] ألا تُذكّرنا هذه "الزمالة" بين المستوطنين والأصلانيّين، الزمالة التي تستلزم الاحتفاء بهُويّة واحدة في ظلّ حضور حذِر للآخَر، بكلمات هربرت ماركيوز التي تلخّص مثل هذا النوع من المواقف بوصفها "قمعًا عقلانيًّا للفردانيّة في مَكْنَنة (mechanization) العروض التي تُعَدّ ضروريّة اجتماعيًّا، لكنّها مؤلمة"؟[7]

التساؤل الآخر الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الذي يحصل حينما يُقحَم بالنظام الصحّيّ بأكمله -وهو مسرح هذه الزمالة غير المتكافئة- إلى اختبار من الجهد المكثّف بفعل الجائحة؟

يبحث هذا المقال في مَغازي الاحتفاء بالأطبّاء الفلسطينيّين في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّة، وكذلك في عمليّة تحويلهم من مجرّد موظّفين وساعين للحصول على عمل إلى سفراء وَ "إخوة سلاح" في معركة مواجهة الوباء. أعتمد في مقالي هذا التعبيرَيْن "إِخْوَة" وَ "أُخُوَّة"، لكي أعكس تصوير وسائل الإعلام الإسرائيليّة والدوليّة المتكرّر لِما يراد أن يُظهَر وكأنّه زمالة طبّيّة فلسطينيّة وإسرائيليّة أو -على نحوِ ما صُوِّرت- عربيّة يهوديّة، إبّان الجائحة. كذلك أقوم بهذا بغية تسليط الضوء على "الأخوّة" في السلاح السائدة على نطاق واسع في الحروب وميادين القتال. ترتبط هذه المفاهيم، في سياقاتها الاستعماريّة، بآمال (مضلِّلة في الغالب) حول المساواة الموعودة الوشيكة، تجاه الرعايا الذين يعانون من انعدام المساواة. في مثالنا هذا، وجب أن نستذكر مثالَي الجنود الأفارقة العائدين من ميادين القتال في الحرب العالميّة الثانية، بعد أدائهم الخدمة العسكريّة في الجيش الفرنسيّ، والجنود السود العائدين إلى الولايات المتّحدة بعد أدائهم الخدمة العسكريّة في ڤيتنام.[8]

استيعاب الأصلانيّ واستبعاده

شكّل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، بما يشمله من مَشافٍ وصناديق تأمين صحّيّ (وهو ما يطلَق عليه بالعبريّة الاسم "كوپات حوليم") تدير المشافي والعيادات، كما هو حال أنظمة الرعاية الصحّيّة في السياقات الاستعماريّة الأخرى، شكّل ركيزةً أساسيّة لرؤية الصهيونيّة بشأن "بناء 'أمّة تتمتّع بالصحّة'[9]... [بوصفها] هدفًا بحدّ ذاته،... [وأيضًا بوصفها] شرطًا مسبقًا لإنجاز مهمّة بناء 'وطن

6. Jeffay, Nathan. (2020, April 27). Video saluting Israel's Arab medical professionals during crisis goes viral. **Times of Israel**.

7. Marcuse, Herbert. (2007). **One-Dimensional man: Studies in the ideology of advanced industrial society** (2nd ed). New York: Routledge Press. P. 3.

8. ثمّة مراجع أخرى بشأن هذا الموضوع، تجدونها في الإحالة المرجعيّة 39 في هذا المقال.

9. Comaroff, Jean. (1993). The diseased heart of Africa: Medicine, colonialism, and the black body. In Shirley, Lindenbaum, and Margaret, Lock. (Eds.). **Knowledge, power, and practice: The anthropology of medicine and everyday life** (pp. 305-329). Berkley: University of California Press.
-Warwick, Anderson. (2007). The colonial medicine of settler states: Comparing histories of indigenous health. **Health**, 9 (2). Pp. 144–154.

اليهود القوميّ".[10] وقد توسّعت هذه الشبكة الصحّيّة على نحوٍ بالغٍ بالترافق مع المشروع الاستيطانيّ، وما زالت تواصل التوسّع اليوم كذلك مع افتتاح كلّيّة طبّيّة في مستوطنة "أريئيل" شماليّ الضفّة الغربيّة.

هذا التوسّع، وكما يبدو في خطاب افتتاح الكلّيّة المذكورة، الذي ألقته سيّدة الأعمال الأميركيّة، ميريام إديلسون، واضح تجاه العنصريّة التي يرسّخها، وفي الوقت ذاته يشيح بنظره عنها. وحسبما أعلنت إديلسون في الـ 27 من تشرين الأوّل عام 2019، فإنّ "هذه المؤسّسة الواقعة في قلب السامرة [الاسم التوراتيّ لمنطقة شماليّ الضفّة الغربيّة -المترجم] تجمع الكثير ممّا هو عزيز على قلوبنا: الطبّ، الصهيونيّة، العلم، التوراة، الكبرياء اليهوديّ، والأطبّاء من اليهود وغير اليهود، إلى جانب حبّنا لوطننا وللبشريّة".[11]

كان خطاب إديلسون واضحًا، سواء في عدم قدرته على التمييز بين كلّ من "حبّ الوطن" وَ "حبّ توسيع المستوطنات" التي يُحظر على غير اليهود السكن فيها، تلك التي تُبنى على حساب الأراضي المحتلّة بشكل غير قانونيّ، أو عدم رغبته في التمييز بين هذا الحبّ وذاك. بهذا المعنى، كان خطاب إديلسون واضحًا بشأن الحاجة إلى تجيير الخطاب الطبّيّ من أجل تعزيز وشَرْعَنة المشروع الاستيطانيّ.[12] ويبدو أنّ إديلسون لا ترى أيّ تناقض بين مثل هذا المشروع وحبّ البشريّة، إلّا إذا كانت تنظر إلى الفلسطينيّين، الذين سُلبت أرضهم لغرض بناء المستوطنة، بوصفهم خارجين على تعريف "الجماعة البشريّة".

في هذا المشروع الصهيونيّ الذي يتيه فخرًا، لا يستدعي الطبيب الفلسطينيّ الحذر، ولا يَنظر إليه بوصفه يمثّل تهديدًا، أو يُنظر إليه على أنّه -إلى حدّ ما- "غير ملائم"؛ إذ لا يَنظر إلى مثل هذا الشخص إلّا بوصفه طبيبًا غير يهوديّ ينبغي ضمّه إلى مجموعة المقتنَيات. إنّه، بهذا المنظور، ليس سوى "باشكاتب" أصلانيّ على أفضل تقدير.[13]

تعكس مكانة الفلسطينيّين في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، كأطبّاء أو كمرضى، مكانتهم في الدولة ككلّ، أي بوصفهم أقلّيّة تشكّلت نسبيًّا في وقت ليس ببعيد. هؤلاء، بوصفهم مجموعة مهزومة ظاهريًّا (من وجهة نظر الدولة المستعمِرة)، مجموعة تمكّنت من البقاء على أرضها بعد نكبة العام 1948، لم يكن لديهم -حين انضمّوا إلى الكيان السياسيّ الجديد المنتصر- رأي في الأمر؛ إذ إنّهم قد استفاقوا ليجدوا أنفسهم مسجَّلين كمواطنين في دولة يُفترض أنّها دولة يهوديّة ديمقراطيّة.[14] يشكّل

10. Hirsch, Dafna. (2009). We are here to bring the west, not only to ourselves: Zionist Occidentalism and the discourse of hygiene in mandate Palestine. **International Journal of Middle East Studies**, 41 (4). P. 581.

11. Israel, David. (2019, October 28). After years of struggle, Ariel university's Medical school begins teaching new doctors. **Jewish Press**.

12. إحدى الطرق التي تَخلق بها إسرائيل وقائع على الأرض، وتُرسّخُها، تتمثّل في تحويل ما كان ذات يوم مستوطنة نائية أنشأها مستوطنون متديّنون متطرّفون إلى بلدة تبدو طبيعيّة، مع إمكانية وصول للقطارات، وجامعة يَدرس فيها طلبة يهود وطلبة من فلسطينيّي العام 48، وتُعقَد فيها مؤتمرات دوليّة، وما إلى ذلك. لم تعد تلك المستوطنة بؤرة استيطانيّة صغيرة على قمّة تلّ، بل صارت المستوطنة مقبولة كمكان عاديّ ودائم. حصل هذا جليًّا مع أريئيل، التي رفض مجلس التعليم العالي الإسرائيليّ في بداية الأمر الاعتراف بجامعتها لأنّها تقع في مستوطنة في الضفّة الغربيّة، لكن المجلس اعترف بالجامعة بعد معركة طويلة. الأمر ذاته ينطبق على المركز الثقافيّ في أريئيل؛ إذ رفض بعض الفنّانين الإسرائيليّين في البداية أداء عروضهم هناك، ولكن مع نموّ المستوطنة وانعدام إمكانيّة تمييزها عن البلدات أو المدن الكبيرة كتل أبيب، صار الأمر طبيعيًّا. كانت جامعة أريئيل وكلّيّة الطبّ فيها وجهًا بارزًا من وجوه هذا التطبيع، ولا سيّما نتيجة تنمية العلاقات الدوليّة. لمزيد من المعلومات، في الإمكان مراجعة موقع **بلديّة مستوطنة أريئيل**.

13. في الغالب، يَعتبر المشروع الاستيطانيّ الأطبّاءَ الفلسطينيّين، والأطبّاءَ المحلّيّين على وجه العموم، موظّفين مدنيّين مخْلصين في فترة الاستعمار. للاستزادة:

-Kozma, Liat, & Furas, Yoni. (2020, February). Palestinian doctors under the British mandate: The formation of a profession. **International Journal of Middle East Studies**, 52 (1). Pp. 87–108.

شيرين صيقلي كتبت عن جدّها الأكبر، وكيف كان الأطبّاء المجايلون له يُعتبَرون "سلبيّين" وغير سياسيّين، ومُحابِين للبِيض.

-Seikaly, Sherene. (2019, December). The matter of time. **American Historical Review**, 124 (5). Pp. 1681–1688.

حول الدور المزدوج والغامض للموظّف الأصلانيّ في أفريقيا المستعمَرة، وانتقاد الحكم الاستعماريّ، ومشاركة بعض أفكاره، وإسناده مادّيًّا، انظروا:

-Derrick, Jonathan. (1983). The 'Native Clerk' in colonial West Africa. **African Affairs**, 82 (326). Pp. 61–74.

14. Jabareen, Hassan. (2014). Hobbesian citizenship: How the Palestinians became a minority in Israel. In Will, Kymlicka, and Eva, Pföstl. (Eds.). **Multiculturalism and Minority Rights in the Arab World** (pp. 189-218). Oxford: Oxford University Press.

الفلسطينيّون من بين حَمَلة الجنسيّة الإسرائيليّة الآن 21 في المئة من تعداد سكّان إسرائيل.[15] كذلك إنّ نسبتهم من الأطبّاء تشكّل 17 في المئة.[16] هؤلاء لا يمثّلون سوى بقايا غير مستحَبّة من الماضي، بقايا تُستوعَب في مشروعٍ استيطانيّ استعماريّ مستمرّ ومتوسّع، مشروعٍ يَستبعد غير اليهود من الجماعة الكلّيّة (الكولكتيف)، ويعتبرهم تفصيلًا هامشيًّا، مجرّد حاشية، أمرًا يمكن دمجه في المشروع الصّهيونيّ الأكبر من دون أن يتسبّب في زعزعة الأسس البديهيّة لهذا المشروع.

من الناحية العمليّة، لم توفّر الجنسيّة الإسرائيليّة (المفروضة قسرًا على الفلسطينيّين داخل إسرائيل)[17] من خيارات سوى الانصياع والعمل لاحقًا في جهاز الرعاية الصحّيّ الإسرائيليّ. لقد قدّمت المنظومة لهؤلاء في البداية خدمات الرعاية الصحّيّة (كالدخول إلى المشافي وافتتاح العيادات الصحّيّة في التجمُّعات الفلسطينيّة)، وقد وفّرت لهم بعد ذلك فرص عمل. وهُم، من جانبهم، لم يشكّكوا قَطّ في القيم الإقصائيّة الكامنة في جوهر الصهيونيّة. تتجسّد هذه العلاقة غير المتكافئة والمتوتّرة والمنطوية في الكثير من الأحيان على تناقضات، مثلًا، في الترويج لمركز "بْنِي تْصِيون" [بالعربيّة: أبناء صهيون] في حيفا. يصف هذا المشفى نفسه بأنّه "أوّل مشفى يهوديّ في حيفا" قدّم الرعاية الصحّيّة للمهاجرين اليهود غير الشرعيّين الذين واصلوا الالتفاف على سلطة الموانئ البريطانيّة في إطار الهجرة غير الشرعيّة إلى فلسطين المحتلّة، كما يفخر مشفى "بْنِي تْصِيون" بأنّه قد "عالج جرحى منظّمات الهَجاناه والإيتْصِل واللِّيحِي، السرّيّة" -وهي المنظّمات المسلّحة التي مارست عمليّات القتل والتهجير القسريّ وسلب الأراضي ضدّ الفلسطينيّين خلال الصراع المسلّح في العامَيْن 1948-1949، وهي الأفعال التي صار توصيفها مجتمعة، اسْم النكبة، وما استتبعه ذلك من إقامة دولة إسرائيل.[18] وفي الصفحة نفسها من موقع المشفى على الإنترنت، يفخر "بْنِي تْصِيون" بمعالجة "اليهود، والدروز، والمسلمين، والمسيحيّين العرب، والبهائيّين، على حدّ سواء منذ ما يقارب الـ 100 عام".[19]

إلى جانب روح الفخر الصهيونيّة التي تصدح بها المشافي وصناديق الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّة، تحتفظ هذه المؤسّسات بحقّ الترويج لنفسها عالميًّا بوصفها مساحات مهنيّة محايدة للتعايش اليهوديّ الفلسطينيّ. وعلى العكس من الحال القائم الآن في إسرائيل، حيث تتصاعد وتائر العنصريّة الفجّة،[20] تُصوَّر المستشفيات بوصفها واحات للتعقُّل والمساواة وباعتبارها أنموذجًا للحياة المشتركة التي تمكّن الأطبّاء الفلسطينيّين والإسرائيليّين من العمل جنبًا إلى جنب على مدار الساعة لإنقاذ الأرواح.[21] وتُقدَّم المشافي الإسرائيليّة، مرارًا وتكرارًا، على أنّها ملتقًى سياسيٌّ وثقافيٌّ يتمتّع الجميع فيه بالمساواة لأنّ الجميع -من المستوطنين اليهود إلى الناشطين الفلسطينيّين- يتلقّوْن رعاية

المشفى بوصفه «واحة من الحياد»

15. دائرة الإحصاء المركزيّة. (2019، 31 كانون الأوّل). بيان صحفيّ: على أبواب عام 2020 أكثر من 9.1 مليون مواطن في دولة إسرائيل. **دائرة الإحصاء المركزيّة**، بيان 2019/413. (بالعبريّة).

16. Yaron, Lee. (2020, March 17). Arab Israelis fight Coronavirus as first-class doctors but second-class citizens. **Haaretz**.

17. Tatour, Lana. (2019, Fall). Citizenship as domination: Settler colonialism and the making of Palestinian citizenship in Israel. **Arab Studies Journal**, 27 (2). Pp. 8–39.

18. Pappe, Ilan. (2007). **The ethnic cleansing of Palestine**. Oxford: Simon and Schuster.

19. Bnai Zion Medical Center. (n.d.). **Bnai Zion Medical Center's History**.

20. Rosner, Tal. (2016, December). Heroes of health: Israel's healthcare system as a model of Jewish-Arab coexistence. **Israel Religious Action Center and Israel Movement for Reform and Progressive Judaism.**

21. Kraft, Dina. (2020, April 21). Meet the Majadlas: An Arab Family of Doctors on Israel's Coronavirus Front Lines. **Haaretz**.
-Schneider, Phil. (2018, August 15). Israeli and Arab doctors break every stereotype in the Middle East. **Israel Unwired**.

صحّيّة مؤمَّمة [غير مخصخَصة] هناك.[22] لا تُعَدّ هذه المشافي مكانًا للحياد الطبّيّ فحسب، بل للحياد السياسيّ كذلك. يصوَّر المستشفى على أنّه مكانُ لقاء حميميّ للجميع، من مقدِّمي ومتلقّي العلاج الطبّيّ، وجسرٌ للسلام مع الفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة، بل وما بعد الضفّة وغزّة، أي إلى العالم العربيّ الأوسع.[23] ويجري تكرار هذه الرسائل الإعلاميّة وإعادة إنتاجها في وسائل الإعلام الرئيسيّة والمجلّات العلميّة، وكذلك على مواقع الإنترنت الخاصّة بالمشافي؛[24] وغالبًا يجري استخدام المشافي ابتغاءَ إظهار صورة تقدُّميّة وإنسانيّة لإسرائيل، في إطار مواجهة النقد الموجَّه للسياسات الإسرائيليّة، وسياسة "الهَسْباراه".[25]

عمليًّا، ظلّت الوظائف في قِطاع الخدمات الصحّيّة بالنسبة للكثير من فلسطينيّي الـ 48، تمثّل مسارًا وظيفيًّا مثاليًا، وبوّابةً للارتقاء الاجتماعيّ والاقتصاديّ والاستقرار، فضلًا عن ضمانها نيل الاعتراف من جانب الدولة والمجتمع بعامّة.[26] في الإمكان الاطّلاع على تعبير شعريّ للتهافت على دراسة الطبّ لدى الفلسطينيّين في الداخل في قصيدة علي مواسي "حيفا" التي يقول فيها: "المراهقون الزرق المترنّحة رؤوسهم في حافلات "إيجد" يخرجون كلّ فجر إلى مصانع العلامات الماركة ليحقّقوا أحلام القبيلة بدراسة الطبّ".[27] في بعض الأحيان، يُفضَّل الأطبّاء الفلسطينيّون الذكور على نحوٍ خاصّ. أذكر على وجه الخصوص ما قاله لي مديري المباشر في القسم، أثناء تدريبي المبكّر كطبيب: "العربيّ [أي الفلسطينيّ] الذكر المسيحيّ هو المرشّح المفضّل. لماذا؟ لأنّه كذكر لن يُضطرّ إلى طلب إجازة حمل، ولأنّه كمسيحيّ لا يصوم شهر رمضان، ولأنّه كغير يهوديّ قادر على العمل في الأعياد اليهوديّة، والأهمّ: أنّه لن يكون مضطرًّا للتغيّب عن العمل بسبب خدمة الاحتياط العسكريّة". كنت وقتذاك صغير السنّ، وغير مزوَّد بما يكفيني من أدوات نقديّة لازِمة للتفكير في هذا الوضع المعقّد. لقد شعرت بالحرج، ولم أستطع أن أفهم كيف أنّ اختلافي، الذي يمثّل عادة عنصرًا يحدّ من فرصي في التطوّر المهنيّ، يمكن أن يعاد توسيمه في حالات محدّدة، والاستفادة منه من أجل أن يتناسب مع متطلّبات القوّة العاملة الأكثر تنوّعًا وكفاءة. وبكلمات أخرى، ثمّة حاجة إلى شخصٍ ما لكي يحافظ على استمرار عمل النظام حينما تحتاج المجموعة المهيمنة إلى الاحتفال بعطلها، أو عند استدعاء أطبّائها للخدمة العسكريّة الاحتياطيّ، أي من أجل شنّ حرب على أبناء شعبي.

22. Hendrix, Steve. (2020, April 25). An Arab doctor and an Ultra-Orthodox Jew find common ground in a Covid ward. **Washington Post**.

23. Skinner, Harvey; Abdeen, Ziad; Abdeen, Hani; Aber, Phil; Al-Masri, Mohammad; Attias, Joseph; Avraham, Karen B. et al. (2005, April). Promoting Arab and Israeli cooperation: peacebuilding through health initiatives. **The Lancet**, 365 (9466). Pp. 1274-1277.
-Skinner, Harvey A., & Sriharan, Abi. (2007). Building cooperation through health initiatives: an Arab and Israeli case study. **Conflict and Health**, 1 (1). Pp. 1-9.

24. Rich, Larry. (2020, June 30). Coexistence through medicine: Emek, coexistence and a beacon of Light. **Hospitals, Clalit**.

25. Levitt, Joshua. (2014, March 2). AIPAC's Largest-Ever policy conference kicks off in Washington. **The Algemeiner**.
-Roberts, Chana. (2017, April 10). Your business is national pride. **Israel National News**.
-Ghermezian, Shiryn. (2019, March 29). New UN exhibit shows Israel's 'Above and Beyond' humanitarian efforts around the world. **Jns**.
-Horton, Richard. (2014, October 11). Offline: People to people. **The Lancet**, 384 (9951). Pp. 1332.

26. Popper-Giveon, Ariela, & Keshet, Yael. (2016). "It's every family's dream": Choice of a medical career among the Arab minority in Israel. **Journal of Immigrant and Minority Health**, 18 (5). Pp. 1148–58.

27. مواسي، علي. (2017). **لولا أنّ التفّاحة**. عمّان: الأهليّة للنشر والتوزيع. ص 126.

في المرحلة الواقعة بين ستّينيّات وثمانينيّات القرن الماضي، تعلّم معظم أفراد الموجة الأولى من الأطبّاء الفلسطينيّين (في إسرائيل) في دول شرق أوروبا، وذلك بفضل المنح الدراسيّة التي كان يوفّرها الحزب الشيوعي الإسرائيليّ، الممثِّل البرلمانيّ الرئيسيّ لفلسطينيّي الـ 48 آنذاك. كانت مثل هذه المبادرات هامّة في تعزيز توجُّه الحزب المتمثّل في توسيع قاعدته الشعبيّة وَ "تثقيف وتمكين" المجتمع الفلسطينيّ على وجه العموم.[28] أعقبت الموجةَ الأولى من الأطبّاء موجةٌ ثانية ممّن تلقّوا دراستهم في الجامعات الإسرائيليّة، ومؤخّرًا في كلّيّات الطبّ في الأردن وأوروبا. واليوم، بات هنالك عدد متزايد من الأطبّاء الفلسطينيّين الذين يشغلون مناصب رفيعة في القِطاع الصحّيّ، من بينهم رؤساء أقسام ومديرو مستشفيات. وحاليًّا، يشغل الفلسطينيّون من حَمَلة الجنسيّة الإسرائيليّة ما نسبته 17% من الأطبّاء، وَ 24% من الممرّضات، وَ 47% من الصيادلة في إسرائيل. تفتخر إسرائيل رسميًّا بهذه المعطيات،[29] على الرغم من أنّ 23% فقط من الأطبّاء الفلسطينيّين العاملين حاليًّا في إسرائيل قد درسوا الطبّ في البلاد، مقابل 85% من الأطبّاء اليهود الإسرائيليّين.[30] مردّ ذلك إلى أنّ التلاميذ والطلبة الفلسطينيّين يجري عزلهم وإقصاؤهم كثيرًا عن المنظومة الأكاديميّة، نتاجًا لمعاناة الجهاز التعليميّ في المدارس العربيّة في إسرائيل من منسوبات التسرُّب العالية، ناهيكم عن انخفاض نتائج هذه المدارس في الامتحانات الرسميّة الثانويّة [البجروت]، وهذا ما يجعل دخول فلسطينيّي الـ 48 إلى سلك التعليم العالي، وكلّيّات الطبّ، أمرًا بالغ الصعوبة.[31] إلى جانب ما تقدّم، فإنّ امتحان القبول للمؤسّسة الأكاديميّة مقتصر على العبريّة حصرًا، وهذا ما يشكّل عائقًا إضافيًّا أمام فلسطينيّي الـ 48 في القبول لكلّيّات الطبّ في إسرائيل.

فلسطينيّو الـ 48 بوصفهم ممثّلين لأحد الأسباط الاثني عشر

بعد تهجير غالبيّة الفلسطينيّين من فلسطين الانتدابيّة عام 1948، واصل المشروع الاستيطانيّ الكولونياليّ ممارسة التهجير ضدّ الفلسطينيّين داخل إسرائيل على ثلاثة مستويات مختلفة. المستوى الأوّل مفاهيميّ، حيث لا يشار إلى السكّان الأصليّين بوصفهم "فلسطينيّين" بل بوصفهم "عربًا"، أو أبناء أقلّيّات، جماعة من البشر، غير متحدّرين من مكان محدّد، ولا ينتمون إلى مكان محدّد. المستوى الثاني يتمثّل بالتهجير عن طريق الاستيعاب، حيث يُمنح الفلسطينيّون مكانة "مواطنين عرب إسرائيليّين"، مع انعدام تكافؤ الحقوق والفرص. أمّا المستوى الثالث، فهو الترانسفير الذي يمكننا أن نطلق عليه "ترانسفير تعدُّد الثقافات"، ويحصل لدى انضمام الفلسطينيّين إلى الأمّة الإسرائيليّة المتعدّدة الثقافات -شأنهم في ذلك كشأن مهاجرين متحدّرين من جمهوريّات الاتّحاد السوفييتيّ السابق أو من إثيوبيا، وبالتالي يُنظر إليهم ضمنيًّا بوصفهم غير أصلانيّين.[32]

28. خطيب، سمير. (2020، 23 نيسان). الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ ومشروع ابتعاث الطلّاب للدراسة الأكاديميّة في الدول الاشتراكيّة. **الاتّحاد**.

29. على سبيل المثال، الموقع الرسميّ لوزارة الخارجيّة الإسرائيليّة يتحدّث عن مستشفى في الجليل الأسفل بوصفه نموذجًا لامعًا للديمقراطيّة، حيث إنّ 30 من الأطبّاء الـ 160 الذين يعملون فيه هم من "العرب الإسرائيليّين".
-كوستليمان، كارين. (2009، 24 أيّار). مستشفى بوريا الإسرائيليّ يشكّل مثالًا للديمقراطيّة العالميّة. **وزارة الخارجيّة الإسرائيليّة**.
-Rosner, Tal. Ibid.
-Linder, Ronny. (2017, March31). Israel's medical field: A model for Jewish-Arab equality and coexistence. **Haaretz**.

30. شيمش، عنات؛ روتم، عنات؛ حقلاي، تُصيونه؛ جورجي، موریاه؛ وَحوريف، طوفيا. (2012، تشرين الأوّل). الخصائص المهنيّة للأطبّاء في إسرائيل. **دائرة الإحصاء المركزيّة ووزارة الصحّة**. (بالعبريّة).

31. Coursen-Neff, Zama. (2003). Discrimination against Palestinian Arab children in the Israeli education system. **NYUJ Int'l L. & Pol.,** 36 (4). Pp. 749–816.
-Arar, Khalid, & Mustafa, Mohanned. (2011). Access to higher education for Palestinians in Israel. **Education, Business and Society: Contemporary Middle Eastern Issues**, 4 (3). Pp. 207–228.

32. Veracini, Lorenzo. (2010). **Settler colonialism: A theoretical overview**. Hampshire: Palgrave Macmillan.

إنّ فلسطينيّي الـ 48 هؤلاء الذين ينجحون في الولوج إلى الطبقة الوسطى المهنيّة يمارسون أنماطًا مختلفة من الانضباط غير المباشر (نحو: ممارسة الرقابة الذاتيّة؛ التمايز؛ الانضباط الممارَس ذاتيًّا...)، وذلك لكي يُقبَلوا في المجتمع الأوسع، ويشمل الأمر فصل هُويّتهم المهنيّة عن مسألة كونهم من غير اليهود".[33] برزت هذه الظاهرة في حدّها الأقصى في مطلب طبيب فلسطينيّ مسؤول يدير أحد المشافي أن يقتصر الحديث في المستشفى الذي يديره باللغة العبريّة، وإن كان الحديث يدور بين زملاء ومرضى عرب.[34] يمكن العثور على مثال إضافيّ آخَر في شخصيّة الطبيب الفلسطينيّ الذي يضيء شعلة الاستقلال الرسميّة في يوم استقلال إسرائيل،[35] وهي مفارقة لم تمرّ على الفلسطينيّين مرور الكرام؛ وذلك أنّ الطبيب المذكور كان واحدًا من بين اثني عشر شخصًا يشعلون الشعلة في الحفل، ويمثّلون ما يسمّى بالأسباط اليهوديّة المفقودة، وهو تصنيف يُستثنى منه الفلسطينيّون بطبيعة الحال، فضلًا عن كون يوم الاستقلال الإسرائيليّ يوم نكبتنا.

لقد عُسكرَت اللغة الطبّيّة الحديثة على نحوٍ عميق. فمصطلحات على غرار "محاربة السرطان"، "الترسانة العلاجيّة"، وَ "رصاصات سحريّة" ليست سوى أمثلة بسيطة على هذه العسكرة. يصبح جسد المريض ميدان معركة يحارب فيه الطبيب المقاتل المرض-العدوّ.[36] وهكذا، يتكاثف الزحف الاصطلاحيّ العسكريّ إلى الحياة اليوميّة على نحوٍ أكبر مع جائحة كوفيد- 19.[37] فبالإضافة إلى أجساد المرضى، تَحوَّلَ الحيّز العامّ والمساحات الخاصّة بأكملها إلى ساحة حرب مع الڤيروس. تعمل وسائل الإعلام على توصيف مَرافق الرعاية الصحّيّة بوصفها ساحة معركة جديدة بدلًا من كونها مراكز علاجيّة: فيما يُكرَّم العاملون في مجال الرعاية الصحّيّة باعتبارهم محاربين شجعانًا وشرسين عوضًا عن كونهم معالجين، ويُنظر إليهم بوصفهم مكافحين في مهامّ عسكريّة حاسمة لمجابهة المرض بدلًا من علاجهم للمريض. وفي مجتمع هو بالأصل شديد العسكرة، بات من الواضح أنّ ما عُسكِرَ لا يقتصر على الخطاب وحده؛ إذ إنّ سياسات الدولة الرسميّة تتعقّب المصابين بڤيروس كوفيد- 19 ومواقع تواجدهم عن طريق هواتفهم الخليويّة باستخدام قواعد البيانات الخاصّة بجهاز الـ "شين بيت" (جهاز الأمن الداخليّ الإسرائيليّ)؛ ومراكز الحَجْر الصحّيّ تُعَدّ من قبل الجيش؛ في حين يوفّر جهاز "الموساد" (وكالة المخابرات الوطنيّة الإسرائيليّة) عُدد اختبار ومعدّات الحماية الشخصيّة (PPE).[38]

من موظّفين في قِطاع الصحّة إلى إخوة في السلاح

يتكرّر استخدام مَجازات "المحارب" /"أخوّة السلاح" بشدّة في السياقات الاستعماريّة وغيرها من السياقات الإقصائيّة؛ إذ إنّها تربط ما بين المحاربين الزملاء من خلال روابط الإخوة، فالمحارب يشارك في التضحية ومجد المعارك المجازيّة في المخيال، والمعارك العسكريّة في الميدان، حيث

33. Abu-Rabia-Queder, Sarab. (2017). The biopolitics of declassing Palestinian professional women in a settler-colonial context. **Current Sociology**, 67 (1). Pp. 141–158.

34. عدالة- المركز القانونيّ لحقوق الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل. (2014، 11 أيلول). عدالة في رسالة عاجلة إلى إدارة مستشفى نهاريا: "منع الطواقم من التحدّث بالعربيّة غير قانونيّ". عدالة. حيفا.

35. Hadassah International. (2017, May 2). Prof. Ahmed Eid was honored on Israel Independence Day. Hadassah International.

36. Fuks, Abraham. (2010). The military metaphors of modern medicine. In Zhenyi, Li, and Thomas, Long. (Eds.). **The Meaning Management Challenge: Making Sense of Health, Illness and Disease** (pp. 57-69). Oxford: Inter-Disciplinary Press. -Chamness, Sarah. (2017). Ebola the enemy: How the U.S. media militarized the 2014 Ebola epidemic. Symposium on Undergraduate Research and Creative Expression (SOURCE), 657.

37. Kanji, Azeezah. (2020, May 11). War is not a metaphor. Jadaliyya.

38. Silverstein, Richard. (2020). Israel is militarizing and monetizing the Covid-19 pandemic. Jacobin Magazine, 16.

يمثّل الموت مآل المساواة الأعظم.[39] ومَهما كانت هذه الأخوّة مؤقّتة زمنيًّا، فإنّها تستند إلى روابط قويّة وعدوّ مشترك، إلى جانب التطلّع إلى انبثاق مجتمع جديد، وإلى نهوض إنسان جديد، ينبثق من هذه التوليفة. ومنذ تسليط الأضواء على الجهاز الصحّيّ الإسرائيليّ، الذي ينطوي على نسبة كبيرة من الأطبّاء الفلسطينيّين، نتيجة للجائحة، فإنّ فكرة الإخوة في ميدان المعركة قد شكّلت موضوعًا مكرَّرًا في التغطية الإعلاميّة الإسرائيليّة والدوليّة، حيث تَحوَّل الأطباء وأعضاء الطواقم الطبّيّة من الفلسطينيّين إلى جنود رمزيّين في سلاح الطبّ الذي يقاتل على الخطوط الأماميّة في الجبهة.[40] وقد رُكِّز بغزارة على تَمَظْهُرات هذه التجربة القوميّة على مساواة وكرامة الفلسطينيّين، واحتمالات تسبُّبها في إبطال العنصريّة اليهوديّة المناهضة للفلسطينيّين.[41]

تدّعي حانا أرندت أنّ مفهوم المجتمع الجديد، الذي ينشأ في الغالب في أعقاب خطر يواجهه المجموع، ليس سوى وهم، وأنّه تضليل للبشر الطيّبين؛ لأنّه لا شيء أكثر عرضة للزوال من هذا النوع من الأخوّة التي لا يمكن تحقيقها إلّا في ظلّ ظروف الخطر المحقَّق على الحياة.[42]

في نيسان من هذا العام (2020)، أَطلقت منظّمةُ مجتمع مدنيّ إسرائيليّة تعمل تحت الاسم "هل رأيت الأفق مؤخّرًا؟"، أطلقت حملةً مكثّفة تحت العنوان "شركاء في المصير، شركاء في الحكم"، وذلك في سبيل تعزيز المشاركة الفلسطينيّة في المشهد السياسيّ الإسرائيليّ، وقالت المؤسّسة إنّ "الوسط العربيّ، المعفى من الخدمة العسكريّة بشكل تقليديّ، موجود على الخطوط الأماميّة في معركة بقاء، ويعرّض حياته للخطر، ويحمي الإسرائيليّين جميعًا".[43] وعلى الرغم من أنّ مقطع الڤيديو الذي أطلقته الحملة قد انتشر انتشار النار في الهشيم على شاشات التلفاز، فإنّه قد تجاهل السائد الاجتماعيّ المرتبط بكمون السيادة اليهوديّة في صميم الصهيونيّة، بل حتّى لم يقارب المطلب الأكثر أساسيّة لفلسطينيّي الـ 48 في أن تتحوّل إسرائيل إلى دولة لجميع مواطنيها.[44] وسرعان ما تبدّدت هذه الحملة حين أعاد الإسرائيليّون انتخاب بنيامين نتنياهو لرئاسة الحكومة، وبعد أن واصل نتنياهو

39. للتوسّع بشأن ظاهرة "إخوة السلاح" في سياقات المستوطنين والأصلانيّين، والسياقات الأخرى المرتبطة بالعِرق، راجِعوا:
-Ginio, Ruth. (2017). **The French army and its African soldiers: The years of decolonialization**. Lincoln: University of Nebraska Press.
-Cox, Marcus. (2008, October). The African American experience in Vietnam: Brothers in arms (Book review). **The Journal of Military History**, 72 (4). P. 1335.
-Rozenblit, Marsha L. (2001). **Reconstructing a national identity: The Jews of Hasburg Austria during World War I**. Oxford: Oxford University Press. P. 252.
-Winegard, Timothy C. (2009, Autumn). A case study of indigenous brothers in arms during the First World War. **Australian Army Journal**, 6 (1). P. 191.

40. Halevi, Yossi K. (2020, April 30). Israel's Arab moment. **The Atlantic**, (30).

41. Mitnick, Joshua. (2020, April 16). In Israeli war on Coronavirus, Arab doctors rush to the front. **The Christian Science Monitor**, 16.
- من مقابلة مع د. أرسلان أبو مخّ يصف فيها الطبيب الفلسطينيّ مشاعره المرتبكة، بوصفه من جهة عضوًا فخورًا في الهيئة الطبّيّة العربيّة اليهوديّة، ومن جهة أخرى يسمع التعليقات العنصريّة الصادرة عن الساسة الإسرائيليّين على شاشات التلفزيون. ويصف د. أبو مخّ الجهاز الصحّيّ بأنّه مثال ممتاز للتعايش الذي يجب على الساسة التعلّم منه.
واينت. (2020، 30 آذار). شركاء في المصير: صرخة الكوادر الطبّيّة العربيّة. **Ynet**. (بالعبريّة)

42. Arendt, Hannah. (1969, February 27). A special supplement: Reflections on violence. **The New York Review of Books**.

43. شركاء في المصير، شركاء في الحكم. (2020، 31 آذار). **هل رأيت الأفق مؤخّرًا؟**. (بالعبريّة)
-Jeffay, Nathan. Ibid.

44. ركّزت العديد من المبادرات في دَوْر فلسطينيّي 48 في السياسة والحكم الإسرائيليَّيْن وقضايا الحكم، والمساواة في المواطَنة، والهُويّة الوطنيّة، والحقوق الوطنيّة، ومفهوم إسرائيل بوصفها دولة لجميع مواطنيها.
-Mada al-Carmel. (2007, May). **The Haifa declaration**. Haifa: Mada al-Carmel.
-Adalah. (2007, March). **The democraric constitution**. Haifa: Adalah.
-Knesset Presidium disqualifies Balad proposal. (2018, June 5). Knesset Presidium disqualifies Balad proposal to legislate "Basic Law: A country of all its citizens", because it rejects Israel's existence as a Jewish state. **Knesset News**.

تشكيل حكومته كأكثر الائتلافات اليمينيّة اتّساعًا في تاريخ الدولة، ومع برنامج تضمّن ضمّ أقسام واسعة من الضفّة الغربيّة وغور الأردن، دون أن يجري ضمان سنتيمتر مربّع واحد للسياسيّين الفلسطينيّين على طاولة الحكومة![45]

وعلى الرغم من كلّ هذا الحبر المسفوح، عبثًا، على مزاعم الأخوّة الناشئة حديثًا، والتي تربط سكّان إسرائيل اليهود بأقرانهم من الفلسطينيّين، فإنّها لم تحقّق (ولا يمكنها أن تنجز) أيّة مكاسب سياسيّة، ولن يكون بوسعها أن تحقّق المساواة لفلسطينيّي الـ 48؛ وفي الواقع، لم يؤدِّ الأمر إلّا إلى تطبيع عسكرة إسرائيل، إلى جانب فرض هيمنة النظام الاستعماريّ الاستيطانيّ وتَمَظْهُراته الرمزيّة. وفي الوقت الذي تسبّبت فيه اللحظة الزمنيّة لانتشار الجائحة في استعراض موظّفي الطّبابة الفلسطينيّين والاحتفاء بهم، مع تصويرهم بأنّهم أعضاء في "نادي المحاربين" المجازيّ، فإنّ الحقيقة التي لا شكّ فيها هي أنّ فلسطينيّي الـ 48 لا يزالون عرضة للتمييز، والتشكيك، والعنصريّة الصريحة، وإلى ضروب من عنف الدولة، في تَمَظْهُراتٍ واسعةٍ تتراوح ما بين النقصِ في تمويل المدارس والمجالس المحلّيّة للبلدات ذات الأغلبيّة الفلسطينيّة، ومكانتِهم غير المتكافئة أمام القانون.[46] ونظرًا لفصل فئة فرعيّة كاملة من المهنيّين الأصلانيّين عن سياقهم الطبيعيّ وتحويلهم إلى ضيوفٍ مِطواعين في الحيّز الاستيطانيّ الأكبر، فإنّ سلسلة كاملة من سياسات الدولة العنصريّة وتدخّلاتها لا تزال قائمة.

يعلّمنا التاريخ أنّ جميع المستعمرات الاستيطانيّة قد اصطفَتْ جيلًا متميّزًا من السكّان الأصليّين ليعملوا في مهنة المعطف الأبيض. فتجربة الأطبّاء الفلسطينيّين في إسرائيل اليوم تشبه تجربة نظرائهم الجزائريّين إبّان حقبة الاستعمار الفرنسيّ، وتشبه تجربة الأطبّاء السود في نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا -على سبيل المثال لا الحصر-. يصف فرانز فانون بالتفصيل، في كتابه "استعمارٌ محتضَر"، كيف كان الطبيب الجزائريّ في أوقات الاضطهاد الذي لم يجابَه بمقاومة، يُعتبر مشابهًا للشرطيّ الأصلانيّ، سفيرًا متأوربًا أو متغربنًا للمحتلّ، وكان من المتوقّع منه أن يُظهِر تمسُّكه بالعالم "العقلانيّ" الذي تكمن فيه مصلحته الاقتصاديّة،[47] ويخبرنا فانون بأنّ الطبيب الأصلانيّ لن يعود للاندماج في المجتمع الجزائريّ إلّا في حال تصاعد النضال من أجل التحرير، "بمجرّد أن يعود جسد الأمّة إلى الحياة مجدّدًا بطريقة متماسكة وديناميكيّة".[48]

هكذا نرى، إبّان مرحلة الفصل العنصريّ في جنوب أفريقيا، أنّ الأطبّاء السود الرائدين، حتّى أولئك الذين كانوا ناشطين في إطار شبيبة المؤتمر الوطنيّ الأفريقيّ، الفرع الأكثر راديكاليّة في المؤتمر (ANC) في ذلك الوقت، هم الوجه البرجوازيّ الأكثر اعتدالًا لقيادة حزب المؤتمر الوطنيّ الأفريقيّ. وحينما اشتدّ النضال السياسيّ وتصاعَدَ لهيب الحركة الاحتجاجيّة، انسحب الكثيرون من بين هؤلاء من الخطوط الأماميّة لمعركة مناهضة الأپارتهايد. لقد كان لدى هؤلاء، أثناء أدائهم للطّبابة، مَداخلُ منفردة، وغرفُ انتظار منفصلة، لكلّ من المرضى السود والبيض، بل إنّ بعضهم قد

45. Al Jazeera. (2020, May 17). Israel swears in new Gov't as Netanyahu Pledges Annexation Push. **Al-Jazeera**.

46. Khoury, Azeezah Jack. (2020, May 2). Israeli Arab councils announce strike in protest of 'Discrimination' in Coronavirus funds. **Haaretz**.
-Adalah. (2020, July 4). **Report by Adalah to UN special rapporteurs and independent experts in response to Joint Questionnaire on COVID-19 and human rights**. Haifa: Adalah.

47. Fanon, Frantz. (1994). **A Dying Colonialism**. New York: Grove Press. Pp. 132–142.

48. Ibid. P.145.

ساندوا نظام البانتستون بناء على الپراغماتيّة السياسيّة.[49]

وبالمثل، وجد الأطبّاء الأصلانيّون في إسرائيل أيضًا طريقة للتأقلم، وللتطوّر، ومراكمة رأسمال اجتماعيّ واقتصاديّ، والاندماج في المنظومة من خلال إظهار الانقياد حتّى في ظلّ الظروف القاسية المتمثّلة في العنصريّة والعنف الاستعماريّ. تُبَرَّر مسلكيّة هؤلاء بوصفها پراغماتيّة وذكاءً سياسيًّا، وبالطبع نادرًا ما يُطعن بالتالي فيها. لا أقصد هنا التعميم، وإنّما أبتغي توصيف حالة عامّة. ثمّة نماذج ممتازة أبرزُها مسيرةُ الطبيب حاتم كناعنة واصطدامُه مع المؤسّسة الحاكمة ووزارة الصحّة، ممّا أدّى الى تأسيس جمعيّة الجليل لاحقًا.

يحصل الاحتفاء بالعدد المتزايد من العاملين الفلسطينيّين في مجال الصحّة، وبالحالة الرفاقيّة الفلسطينيّة الإسرائيليّة في قِطاع الصحّة الإسرائيليّ، في وقت يصبح فيه الرأيُ العامّ اليهوديّ - الإسرائيليّ، وممارساتُ الدولة، أكثرَ عنصريّةً وكولونياليّة. ينبغي النظر إلى هذه الزمالة المدّعاة في ضوء قانون القوميّة اليهوديّة الصادر عام 2018، والذي يعلن إسرائيل دولة يهوديّة يقتصر حقّ ممارسة تقرير المصير فيها على الشعب اليهوديّ، ويكون تطوير الاستيطان اليهوديّ قيمة قويّة يجب تعزيزها وتقويتها،[50] في نفس اللحظة التي تستعدّ فيها الدولة لضمّ مستوطنات الضفّة الغربيّة.[51]

عمليّة الإعدام الميدانيّ السافرة، خارج نطاق القضاء، لشابّ فلسطينيّ على مدخل مشفى بالقرب من تل أبيب على أيدي قوّات الأمن في الـ 13 من أيّار، بعد أيّام قليلة فقط من تلويح الأطبّاء بالأعلام الإسرائيليّة وأداء التحيّة لأكروبات سلاح الجوّ الإسرائيليّ الذي يخلب الألباب في السماء المحتلّة، تلك العمليّة وذاك التلويح هما ما يجسّدان، باختصار، روح العصر الحاليّة.[52]

شكر وعرفان:
يودّ الكاتب أن يشكر كاثرينا كوناريك على مساندتها عمومًا، وعلى إسهامها في تحرير هذه المادّة.

*أسامة طنّوس طبيب أطفال متخصّص في حيفا، وهو يتابع حاليًّا العمل على نيل درجة الماجستير في علوم الصحّة العامّة. يعمل د. طنّوس باحثًا لصالح "جمعيّة الجليل" (الجمعيّة القُطريّة العربيّة للبحوث والخدمات الصحّيّة). وهو كذلك محلّل في مركز أبحاث "شبكة السياسات الفلسطينيّة"، وزميل في برنامج فولباريت هوبرت همفري للعام 2020 في سياسات الصحّة والصحّة العامّة. وتشمل اهتماماته البحثيّة العنفَ البنيويَّ والفروقَ الصحّيّة.

49. ذاك هو الصراع بين الالتزام السياسيّ لدى العديد من الأطبّاء السود وسعيهم وراء حياتهم المهنيّة وثرواتهم في نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا، حسبما أشار نيلسون مانديلا.
-Digby, Anne. (2005). Early black doctors in South Africa. **Journal of African History**, 46 (3). Pp. 427–454
-Digby, Anny. (2007). From Mahlangeni to Gumede – The second generation of black doctors in South Africa (1913–1930). **South African Medical Journal**, 97 (6). Pp. 424–429.

50. ترجمة غير رسميّة للقانون باللغة الإنجليزيّة على الموقع الإلكترونيّ للكنيست.
Basic Law: Israel- The nation state of the Jewish people. (2018). **Knesset**.

51. Sherwood, Harriet. (2020, June 28). Israel's cabinet meets to finalize Annexation Plans. **The Guardian**.

52.عدالة. (2020، 14 أيّار). إعدام يونس بيد حراس الأمن نتيجة لسياسة التستّر على الإعدامات الميدانيّة وغياب المحاسبة. **عدالة**: **بيانات صحفيّة**. حيفا.

الرجوع لقائمة المحتويات

جائحة كورونا وانعكاساتها على جهاز التربية والتعليم في النقب: تحدّيات وتطلّعات مستقبليّة

* إبراهيم إسماعيل أبو عجاج

الملخّص

ترمي هذه الورقة إلى تسليط الضوء على انعكاسات جائحة كورونا على جهاز التربية والتعليم العربيّ في النقب، وذلك في ظلّ الظروف الحالكة الناتجة عن موجتَي الجائحة الأولى والثانية، ونحن في بداية السنة الدراسيّة.

لعلّ قضيّة إدارة جهاز التربية والتعليم وإعادة دولاب العمل فيه تشغل الكثير من المختصّين والمسؤولين في الوزارات المختلفة، ولا سيّما وزارة التربية والتعليم؛ وذلك بغية تحريك عجلة الاقتصاد. ونحن في هذا السياق لا بدّ أن نتطرّق إلى هذه الانعكاسات على جهاز التربية والتعليم العربيّ عامّة، وفي منطقة النقب على وجه الخصوص، وهو من أشدّ نقاط الضعف التي تكشّفت عنها جائحة كورونا، والتي تكشف بدورها النقاب عن الإهمال والتمييز البنيويّ الذي يواجه هذا الجهاز من قِبل الإدارة العليا في وزارة التربية والتعليم. ففي حين أصبح فيه الإهمال العامّ المستمرّ معروفًا وله دوافعه وأهدافه، فإنّ الإهمال والتجاهل الكبيرين لجهاز التربية والتعليم هو أمر غريب بل مستهجَن. هذا الإهمال تَبيَّنَ مجدَّدًا في فشل وزارة التربية والتعليم في تجهيز المدارس العربيّة في النقب بالصورة المقبولة، وتهيئتها مسبقًا من أجل التواصل المستمرّ في التعليم من خلال منظومة التعلُّم عن بُعد. كذلك تكشف عودة الطلّاب التدريجيّة إلى الحياة التعليميّة التربويّة عمقَ الفجوة بين التلاميذ اليهود والتلاميذ العرب؛ فقد كشفت عودة التلاميذ إلى صفوفهم النقاب عن انعدام ثقة الأهالي النقباويّين بالمدارس وبمقدرتها على احتواء أبنائهم والحفاظ عليهم في أروقتها في ظلّ خطر الإصابة بڤيروس كورونا. بُرهِنَ انعدام الثقة هذا لاحقًا عند إغلاق المدارس واحدة تلو الأخرى في النقب نتيجة إصابات الطلّاب وطاقم المعلّمين ودخولهم إلى الحجْر الصحّيّ.

المقدّمة

أكّدت الدراسات والأبحاث الميدانيّة معاناة جهاز التربية والتعليم في المجتمع العربيّ، ولا سيّما في النقب، وذلك نتيجة سياسات تمييز استعماريّة ما زالت معمولًا بها منذ ما يربو على سبعة عقود.[1] شهدت السنوات الأخيرة تحوّلًا كبيرًا في دراسة وبحث قضايا النقب، حيث تسهم نخبة من الباحثات والباحثين النقباويّين في الإنتاج المعرفيّ الشامل عن التربية والتعليم في النقب. على سبيل المثال، نشير إلى أبحاث كلّ من الآتية أسماؤهم: إسماعيل أبو سعد؛[2] سراب أبو ربيعة-قويدر؛[3] عارف أبو

1. أبو عجاج، إبراهيم. (1437/2016). نظرة مقارنة في مسألة التسرّب العلنيّ لدى المراهقين في خطر في جهاز التربية والتعليم العربيّ في النقب. **جامعة**، المجلّد (20) العدد (1). باقة الغربيّة: أكاديميّة القاسميّ. ص 147-170. (بالعبريّة).

2. أبو سعد، إسماعيل. (2013). "تحوُّلات اجتماعيّة - سياسيّة وتطوّر جهاز التربية والتعليم الرسميّ لدى عرب النقب: معضلات وتحدّيات". لدى رئوفين، بدهتسور. (محرّر). **البدو في النقب: تَحَدٍّ إستراتيجيّ لإسرائيل**. مركز ش. دانيئيل أڤراهام للمحادثات الإستراتيجيّة. (بالعبريّة).

3. أبو ربيعة-قويدر، سراب. (2017). **تبلْوُر الهُويّة الطبقيّة للمهنيّات الفلسطينيّات في النقب**. القدس: الجامعة العبريّة – ماچنس. (بالعبريّة).

قويدر؛[4] عدنان أبو جريبيع.[5] أسهَمَ هذا الإنتاج في الكشف عن العوائق في جهاز التعليم وسياسته في النقب، وعن أسبابها وسبل التغلّب عليها. من بين القضايا التي تناولتها هذه الأبحاث: التسرُّبُ؛ دمج التكنولوجيا في المدارس العربيّة؛ التعلُّم لدى الفتيات والنساء في النقب. بيّنت هذه الدراسات عُمق التمييز الذي يعاني منه جهاز التربية والتعليم في النقب، ومدى انتهاك الحقوق الأساسيّة للطالب العربيّ في النقب على مرّ العقود السبعة الأخيرة، وهو ما انعكس بحدّة في الأشهر الأخيرة نتيجة جائحة كورونا؛ إذ تعاني المدارس من عدم الجاهزيّة لتعليم الطلبة عن بُعد في ظلّ هذه الجائحة، بالإضافة إلى القصور في تدريب طواقم التدريس لاستخدام آليّات التعلُّم عن بُعد. وفي الوقت ذاته، وبسبب الظروف المعيشيّة في غالبيّة البيوت العربيّة في النقب، لا تستطيع العائلات العربيّة توفير الموارد التكنولوجيّة الأساسيّة للتعلُّم عن بُعد، كالحواسيب، وغياب شبكة الإنترنت أو ضعفها، ولا سيّما في القرى غير المعترف بها، المنتهَكة حقوقها الإنسانيّة الأساسيّة والبديهيّة. فعلى سبيل المثال، لا تتوافر في هذه القرى الموارد اليوميّة الأساسيّة كشبكة الكهرباء، والمياه والمباني والبنى التحتيّة والتي هي المركّبات الأساسيّة للتعلُّم عن بُعد.[6]

يشكّل نظام التعليم عماد بناء المجتمع، وأساس التنشئة لأفراده، وهو الذي يبلور وعيهم لخلق أجيال متعلّمة ومثقّفة تسعى لمستقبل أفضل. يقوم نظام التعليم العربيّ البدويّ في النقب بدَوْر مهمّ في حياة عرب النقب، وذلك لكونه يشكّل إحدى الساحات المركزيّة في خلق جيل متعلّم، ومثقّف، ونضاليّ يكافح من أجل تحقيق الحياة الكريمة. وكما أسلفنا، تشير الأبحاث إلى معيقات كثيرة تواجه جهاز التربية والتعليم في المجتمع العربيّ، ولا سيّما النقباويّ.[7] ازدياد هذه المعيقات التي تعمّق الفجوات الأساسيّة في التعليم العربيّ النابعة من السياسات الاستعماريّة التمييزيّة تحدُّ من تقدُّم المجتمع العربيّ على جميع الصُّعُد؛ وقد تكون الجائحة ورقة لاكموس التي فضحت وعكست هذا التمييز. يقف هذا الجهاز عاجزًا أمام التحدّي الجديد في التتبُّع التعليميّ أثناء مكوث الطلّاب في البيوت منذ الإغلاق التامّ الأوّل في الثالث عشر من آذار في هذا العام (2020/3/13)، ليبقى أكثرُ من 95 ألف طالب عربيّ في النقب دون آليّات لمتابعة التعلُّم عن بُعد. وقد ناقشت لجنة التربية البرلمانيّة في الكنيست في أيّام الحكومة الانتقاليّة، في جلستها التي عُقِدت في 2020/4/22 برئاسة عضو الكنيست نيتسان هوروفيتس، التقاعسَ الشديد من قبل وزارة التربية والتعليم، والنقص الكبير في نظام الحَوْسَبة في البيوت والمدارس والذي خلق مُناخًا من اليأس لدى الأهل والطواقم التدريسيّة على وجه الخصوص في المراحل الابتدائيّة. ومن المعطيات التي عُرضت خلال جلسة اللجنة، تَبَيَّن أنّ هناك نقصًا مقداره 41,000 حاسوب في البيوت العربيّة في النقب. على سبيل المثال، سبعون في المئة (70%) من تلاميذ كسيفة، وخمسون في المئة (50%) من تلاميذ اللقيّة وتلاميذ حورة، لا يملكون حواسيب أو بدائل لها.[8]

4. أبو قويدر، عارف. (2015). تكنولوجيّات الاتّصال الحديثة كمصدر معلومات للشبيبة العرب - البدو في إسرائيل. **جامعة**، المجلّد (19) العدد (2). باقة الغربيّة: أكاديميّة القاسميّ.

5. جريبيع، عدنان. (2005). **استعمال "التشات" لدى الشباب البدو**. دراسة لنيل درجة الماجستير. بئر السبع: جامعة بن چوريون في النقب. (بالعبريّة).

6. أبو عجاج، إبراهيم. (2019). تأقلم واندماج الفتيات العربيّات في مؤسّسات تأهيل المعلمين. **جامعة**، المجلّد (22) العدد (1). باقة الغربيّة: أكاديميّة القاسميّ. (بالعبريّة).

7. تركّزت المعيقات حول نقص شديد في الغرف التدريسيّة (1400 غرفة تدريسيّة)، وازدياد عدد الغرف المتنقّلة المصنوعة من الصفيح، وفقدان الأمان والصحّة العامّة للطالب داخل المدارس، وغياب التأثير المحلّيّ وغياب متابعة تقدُّم الأداء التعليميّ والتحصيليّ في المدارس، بالإضافة إلى نقص حادّ في الآليّات التعليميّة الحديثة، وانعدام الأطر التعليميّة اللامنهجيّة في القرى العربيّة البدويّة في النقب.

8. فرح، جعفر؛ وآخرون. (2020، نيسان). **تأقلم المجتمع العربيّ مع أزمة الكورونا** (مقدَّم للجنة القُطريّة لرؤساء السلطات المحلّيّة العربيّة). ص 29-33. (بالعبريّة).

بيّنت هذه النواقص الفرق في الموارد الماليّة التي ترصدها سنويًّا السلطاتُ المحلّيّة ووزارةُ التربية والتعليم للمدارس العربيّة في النقب. تلك موارد شحيحة، مقارَنة بالمدارس اليهوديّة. لم تستطع المدارس العربيّة في النقب تغطية تكاليف جاهزيّة التلاميذ وأهلهم وطواقم التدريس للتعلُّم عن بُعد، نحو الاستعانة بمختصّين في مجالات البرمجة والآليّات التعليميّة الحديثة، ودورات استكمال للمعلّمين، وكذلك لإرشاد الطلّاب لإنجاز مهامّهم التعليميّة عن طريق الحَوْسَبة والتقنيّات وتوفيرها لهم في البيوت، وتحضيرهم لمثل هذه الظروف. ويمكننا الجزم بأنّ الجوانب التنفيذيّة التي توفّر الظروف المناسبة في المدارس والتي من الممكن أن يستغلّها الطالب في الأزمة الحاليّة للتعلُّم عن بُعد قد لقيت فشلًا ذريعًا في جهاز التربية والتعليم قُطْريًّا؛ فكم بالحريّ في المجتمع العربيّ البدويّ في النقب؟! ونستخلص من هذا أنّ التدريبات والإجراءات التقنيّة والأيّام الدراسيّة الأحاديّة الدوريّة خلال السنة الدراسيّة، لم تَصْبُ إلى تحقيق الهدف المنشود خلال الأزمة الحاليّة، وذلك لأنّ هذه التمارين والمهامّ الفوريّة، التي نُفّذت داخل أروقة المدارس، ما كانت سوى تمارين عابرة، كان أثرها في الصور التي انتشرت فورًا على صفحات مواقع التواصل الاجتماعيّ وغيرها من مواقع الإنترنت فقط. وهكذا تكون المؤسّسات التعليميّة العربيّة، وفي النقب بخاصّة، قد نفّذت المهامّ التي أنيطت دون الأخذ بعين الاعتبار التطبيقَ المستقبليَّ عند الضرورة، ولم تأخذ في الحسبان أهمّيّة تجهيز الطلبة ومدرّسيهم وأهلهم.

الواتس آپ (WhatsApp) منصّة لتعزيز التعلُّم الذاتيّ

منذ إغلاق المدارس، تعيش الطواقم التدريسيّة والتلاميذ والأهل في منطقة النقب، كسائر المناطق، نوعًا من البلبلة والارتباك البالغَيْن. وعلى الرغم من الإغلاق المستمرّ والتقلُّبات والتغيُّرات السريعة في قرارات الجهات الحكوميّة المختصّة، مثل وزارة الصحّة ووزارة التربية والتعليم، فضلًا عن النقص في المعدّات والتقنيّات التكنولوجيّة، استطاعت الطواقم التدريسيّة -بالتشارك مع الأهل- استعمال المنصّات المتاحة لديهم كبديل في التعليم عن بُعد. وقد قام غالبيّة المعلّمين بتوظيف آليّة التعلُّم عن بُعد من خلال استعمال تطبيق الواتس آپ (WhatsApp) من خلال مجموعات تعليميّة ضمّت أهالي التلاميذ الذين أصبحوا هم وأجهزتهم الشركاء والوسطاء في نقل وتوضيح المهامّ التعليميّة لأطفالهم. واعتُبِرَت هذه المجموعات الوسيلة الأمثل في الحفاظ على التواصل المستمرّ مع التلاميذ، عِلمًا أنّ البرامج الأخرى مثل "زُومْ" (zoom) وَ "مِيتْ" (Meet) غير متاحَيْن للأهل نتيجة لعدم توافر التقنيّات التكنولوجيّة والبنى التحتيّة اللازمة في غالبيّة القرى العربيّة البدويّة في النقب، إلى جانب عوائق أخرى. ولكن سرعان ما شكا الأهالي من عدم نجاعة ونجاح طريقة مجموعات تطبيق الواتس آپ، وذلك نتيجة المهامّ الكثيرة التي يتسلّمها الأهل في اليوم الواحد بالنيابة عن أطفالهم، وعدم توافر أجهزة هواتف نقّالة في البيت لكلّ الأبناء تُمكّنهم من تنفيذ المهامّ في آن واحد، ممّا يَضطرّ الأهلَ -في غالبيّة الأحيان- إلى تجاهل المهامّ المدرسيّة الملقاة على أبنائهم ممّا يؤدّي إلى خروج الأهالي من مجموعات التواصل الصفّيّة (الواتس آپ). أضف إلى كلّ هذا معاناة المعلّمين والمعلّمات كأهل لتلاميذ، ممّا جعل الطواقم التدريسيّة بين المطرقة والسندان ليضيف مدماكًا آخر من المعاناة.

التحدّيات والتطلُّعات المستقبليّة

إنّ حماية استمراريّة العمليّة التعليميّة في هذه المرحلة التي تشهد انتقالًا فوريًّا من التعلّم داخل الصفّ في المدارس إلى التعلّم عن بُعد تشكّل تحدّيًا كبيرًا أمام الطواقم التدريسيّة والأهل والطلّاب، بسبب حالة عدم الوضوح بشأن استمرار هذه المرحلة. لقد كشف تطبيق مبادرة "التعلُّم عن بُعد" عن العديد من المَحاور والتفاصيل التي تتقاطع فيها جميع الأطراف التعليميّة العمليّة، والتي حملت في طيّاتها الكثير من التساؤلات عن جدوى هذه الطريقة، فضلًا عن بروز تحدّيات جديدة على الطواقم التدريسيّة كان لا بدّ أن يتجهّزوا لها، وذلك بُغية تحقيق الاستفادة التعليميّة القصوى للطلّاب. وفي حال النقب، تنضاف إلى هذه التحدّيات معيقات بنيويّة ناتجة عن سياسات تمييزيّة طويلة الأمد تعاني منها القرى والبيوت والعائلات، إلى جانب الضغوط المادّيّة والنفسيّة الناجمة عن الجائحة على جميع الصُّعُد، فكانت المهامّ المدرسيّة الكثيفة عاملًا إضافيًّا في كسر ظهر الجمل.

لقد أصبح خلق جوّ تعليميّ في البيوت من الأمور الأكثر إلحاحًا لحماية استمراريّة العمليّة التعليميّة، ولذا علينا تكريس الجهود في هذه الفترة الزمنيّة، بغية تعزيز أساليب العمل والتواصل المستمرّ بين الطلّاب والمعلّمين، من خلال إيجاد طرق بديلة تختلف عن التقنيّات الحديثة؛ إذ إنّه على الرغم من العودة التدريجيّة إلى مقاعد الدراسة وفتح المدارس، لم يرسل الأهالي في منطقة النقب الطلّاب إلى المقاعد مجدَّدًا، بل أبقوا الحال كما هو عليه حتّى نهاية السنة الدراسيّة، وهو ما اضطَرّ المدارسَ والطواقم التدريسيّة إلى تحضير مجلّدات تدريسيّة وتوزيعها على الطلّاب في الحارات، والبيوت والتجمّعات السكّانيّة غير المعترَف بها؛ وذلك باعتبار أنّ هذه الطريقة تساعد على استمرار العمل والتواصل مع الطالب بمساعدة الأهل ابتغاءَ التدرّب على الموادّ التعليميّة المرفَقة.

تُبيّن الأزمة الحاليّة الحاجة الماسّة إلى خلق شراكة متينة أكثر من السابق بين الطواقم المدرسيّة والمعلّمين من جهة، والأهل من جهة ثانية، وذلك بعد انتقال التعليم من الحيّز المدرسيّ إلى حيّز البيت، ممّا ضاعف مسؤوليّة الأهل في تعزيز الثقة لدى أطفالهم لضمان نجاحهم. يمكن القول إنّه لا يمكننا توقُّع نتائج مثاليّة من تجربة "التعلُّم عن بُعد"، وذلك نظرًا للسرعة التي اضطُرّت فيها المؤسّسات التعليميّة وطواقمها إلى الانتقال إلى إستراتيجيّة وتقنيّات تعليميّة جديدة دون التحضير المسبق لها، ناهيك عن الضغوط الواقعة على كاهل الأهل خلال هذه الفترة.

الخاتمة

سلّطت هذه الورقة الضوء على معاناةِ الطلبة العرب في النقب وأهلهم وطواقمهم التدريسيّة في هذه الأزمة، المعاناةِ التي نتجت عن النقص الشديد في الآليّات الضروريّة المستخدَمة في طريقة "التعلُّم عن بُعد" التي أقرّتها وزارة التربية والتعليم، ناهيك عن عدم تهيئة الجهات الفاعلة لاستعمال هذه الآليّات في حال توافرها. هذا الضيق أفضى بالمعلّمين إلى تبنّي التواصل مع الأهل عبْر تقنيّة الواتس آپ (WhatsApp)، وعبْر تصوير موادّ تدريسيّة وإرسالها من خلالها، وهو ما جعل الأهل وكلاء التواصل بينهم وبين الطلّاب. يضاف إلى ذلك التحدّيات الاجتماعيّة التقليديّة والمادّيّة، حيث لا يزال هناك الكثير من الطلّاب في النقب يفتقرون إلى العدالة التعليميّة التكنولوجيّة الحديثة، وذلك بسبب شُحّ الموارد التي على وزارة التربية والتعليم والسلطات المحلّيّة توفيرها، أو لعجز الأهل عن توفير الأجهزة اللازمة للتواصل التعليميّ عن بُعد نتيجة الأوضاع المادّيّة.

*إبراهيم إسماعيل أبو عجاج- باحث وكاتب، يعمل في قسم الأبحاث والدراسات العليا في جامعة بن چوريون في بئر السبع؛ ويعمل مدرّسًا للّغة العربيّة في مدرسة تلّ الملح الابتدائيّة في كسيفة.

**** المقال مهدى من الكاتب إلى ابنته سلام -وهي طالبة في الصفّ البستان في مدرسة أبو وادي.**

الرجوع لقائمة المحتويات

نحو إستراتيجيّات ملائمة لعلاج ظاهرة العنف الجندريّ في ظلّ جائحة الكورونا

منال شلبي*

لقد استجلبت قضيّة العنف الجندريّ طَوال فترة جائحة الكورونا اهتمامًا كبيرًا ومتزايدًا من قِبل الجمعيّات النسويّة، وشهدت حراكًا لم تشهده من قبل، ولا سيّما عندما ارتفعت على نحوٍ ملحوظ التبليغاتُ عن العنف في العائلة والتوجُّهات لخطوط الطوارئ، فضلًا عن الارتفاع الحادّ الذي بلغت نسبته 760% في توجّهات الفِتيان والفتيات ضحايا العنف في العائلة. فلقد بلغ عدد التوجّهات إلى السلطات الرسميّة، بين الـ 13 والـ 20 من أيّار، 512 توجُّهًا من فتيات ونساء ضحايا العنف الجندريّ، أي بمعدّل 73 توجُّهًا في اليوم، مقارنة بـِ 8 خلال الأسبوع الأوّل من الحظر الصحّيّ (آذار 2020)، وقد أدّى الإغلاق الذي نتج عن أزمة الكورونا إلى حبس المزيد من النساء والأطفال والفتيان في مكان ضيّق لفترة طويلة من الوقت مع المعتدين عليهم ومع القليل من المساعدة المتاحة.[1]

ولعلّ من أهمّ الحقائق المعروفة لنا، والتي برزت على نحوٍ خاصّ في هذه الأزمة، تلك التي تُذكّرنا -كمهنيّين ومهنيّات وكعرب على حدّ سواء- بأنّ همومنا وتحدّياتنا ومشاكلنا ومخاطرنا تشكّل الساحة الخلفيّة للدولة ومؤسّساتها؛ إذ إنّ مشكلة العنف هي -أوّلًا وأخيرًا- مشكلة سياسيّة وطنيّة ومدنيّة، وهي ليست فقط مشكلة إنسانيّة أو تقنيّة يمكن الالتفاف عليها وإهمالها أو حلّها بتخصيص بعض الميزانيّات والموارد فحسب، بل إنّ المشكلة هي أعمق وأكبر وأشمل، ولا سيّما عندما نتحدّث عن العنف الجندريّ في المجتمع العربيّ.

المعطيات الخاصّة بالعنف والبطالة والأزمة النفسيّة التي مرّ فيها مجتمعنا، ولا زال يمرّ، ولا سيّما أنّ 45% من المجتمع العربيّ يقع تحت خطّ الفقر،[2] تؤكّد مدى ضرورة وحيويّة توفير عنوان مهنيّ لمساندة ودعم ومرافقة هذه العائلات على جميع الصُّعُد، حيث تسبّب تفاقم الأزمة في الضرر على نحوٍ هائل لدى الأفراد والعائلات التي تعاني من ضائقة على وجه العموم، والنساء على وجه الخصوص، اللواتي يشكّلن الحلقة الأكثر استضعافًا في هذه العائلات. أسباب الضرر عديدة؛ من بينها: الانكشاف أكثر إلى المرض ومَخاطره؛ فقدان أماكن العمل؛ العمل في أعمال خطرة؛ الإبقاء على المصاريف العاديّة مع قلّة الدخل أو انعدامه؛ توسيع الفجوة التعليميّة؛ تقليص المواصلات العامّة؛ التعلُّق الزائد بالبيروقراطيّة وبالوسائل الـمُحَوْسَبة؛ تضييق الإمكانيّات وتقليصها للتوجّه لخدمات الرفاه والأطر الداعمة.

ماذا ينقصنا؟

على أثر هذا الوضع، انتابني شعورٌ عميقٌ بالقلق، إزاء الجهود المبذولة لمكافحة ظاهرة العنف الجندريّ، والتي اقتصرت على طواقم المهنيّات والمهنيّين والجمعيّات النسويّة، وما نجم عن أزمة الكورونا من تبعات نفسيّة وصحّيّة لدى العديد من الفتيات والنساء بخاصّة، ولا سيّما إزاء شُحّ الميزانيّات والموارد التي كان من المفروض أن توظَّف في علاج الظاهرة، تلك الميزانيّات التي كان من

1. يرون، لي. (2020، 21 أيّار). عدد شكاوى عنف داخل العائلة قفز عشرة أضعاف في الأسبوع الأخير. هآرتس. (بالعبريّة)

2. أندبلد، ميري؛ غوطليب، دانييل؛ هيلر، أورن؛ وكرادي، لاهَف. (2019، كانون الأول). أبعاد [حجم] الفقر والفجوات الاجتماعيّة - تقرير سنويّ، 2018. القدس: مؤسسة التأمين الوطنيّ، دائرة البحث والتطوير. (بالعبريّة)

المفروض أن تخصّصها الأجهزة الحكوميّة -وعلى رأسها وزارة الرفاه الاجتماعيّ- لتوفير الحماية للفتيات والنساء ضحايا العنف الجندريّ.

لقد أظهرت أزمة الكورونا -إضافةً إلى النقص الصارخ في الميزانيّات- أنّ الجمعيّات النسويّة (صاحبات وأصحاب الخبرة) تقوم بدَوْر المؤسّسات الحكوميّة؛ فهي في الصدارة وتقود هذا العمل، لكن ما ينقصها هو العمل بانسجام وتناغم والكثير من الملاءَمة وتنسيق طرق العمل في ما بينها لمكافحة ظاهرة العنف الجندريّ. هذا الواقع المَعيش الآن يحتّم حشد الطاقات وتوحيد الجهود والتفكير بطريقة إبداعيّة ومبتكرة، أي توحيد العمل بين المجتمع المدنيّ ومؤسّساته (ولا سيّما النسويّة منها) من جهة، والمهنيّين والمهنيّات من جهة أخرى، وبخاصّة العمّال والعاملات الاجتماعيّات منهم، الذي يعملون في الميدان ويتواجدون في الدوائر القريبة في حياة العائلات -ولا سيّما تلك التي تعاني من عنف.

لقد أكّدت حقائق الظاهرة الممتدّة عبْر العقود، والتي لا تهدأ، أنّ العنف الجندريّ متجذّر وأنّه ظاهرة مستمرّة بمركّباتها، وأنّه أحد المحاور المركزيّة ضمن ظواهر اجتماعيّة عديدة تستوجب تضافر القوى والطاقات من أجل توفير حلول جذريّة لها. وعلى ضوء شعور المهنيّات والمهنيّين، وكذلك الجمعيّات النسويّة بالعزلة والوحدة، في خضمّ علاجهم للظاهرة ومتابعتها خلال أزمة الكورونا، لا بدّ من استخلاص عِبَر ومرتكزات أساسيّة نبني عليها آليّات عملنا المستقبليّة والتي من شأنها أن تسهم في إرساء الثوابت التي يُبنى عليها عمل تقديم المساعدة، والتدخّل وتوفير الحماية للفتيات والنساء ضحايا العنف الجندريّ.

العبرة الأساسيّة يجب أن تكون العمل المشترك، ومحاربة شعور العزلة لدى ناشطات الجمعيّات النسويّة، وكذلك لدى المهنيّات والمهنيّين. فالمشكلة كانت، ولم تزل، مشكلة غياب آليّات العمل والتنسيق والتعاون، التي يجب اعتمادها في ظلّ التحدّيات الجديدة التي خلقتها الجائحة في سبيل ضمان توفير الخدمة المثلى للفتيات والنساء. علينا القيام بذلك من خلال تفعيل جميع أشكال الحركة الميدانيّة والمهنيّة، وتطوير مبادرات ونشاطات مشتركة ومتشابكة من قبل المهنيّين والمهنيّات، ومن قبل الجمعيّات النسويّة. في البداية، بالإمكان إجراء الحِوار بين الأطُرُ النسويّة وأصحاب المهنة الذين تواجدوا ولا زالوا متواجدين مع مجتمعنا، ويفهمون خباياه ومشاكله وتحدّياته ونقاط ضعفه وقوّته عن كثب. بعد ذلك يجري توسيعُ دائرة جمهور الهدف، أي جمهور المستفيدين من الخدمة التي نقدّمها لنصل إلى جميع شرائح المجتمع ونتعامل معها ونقدّم الخدمة لها، ولا سيّما الفتيان والرجال، والتعاملُ مع المهنيّين والمهنيّات ومَأْسَسة وتطوير مكانتهم كعمّال حيويّين، كي يستطيعوا القيام بمهامّهم وعملهم على نحوٍ عميق ومدروس ومهنيّ. من المهمّ الاعتراف بأهمّيّة دَوْرهم أيضًا، في الحياة الطبيعيّة لا في وقت الطوارئ والأزمات فحسب، والتعامل معهم على أساس الندّيّة والشراكة.

ما أظهرته هذه الأزمة بالنسبة لواقعنا المَعيش اليوم، والذي يأتي بتحدّيات جديدة، أنّنا لا زلنا -جمعيّات نسويّة ومهنيّات ومهنيّين- غارقين في آليّات العمل المعهودة والمألوفة دون التوقّف وفحص ماهيّة طرق وسُبُل عملنا النسويّ والمهنيّ الفعّالة والمؤثّرة، وما يطلبه مجتمعنا الآن، وماهيّة احتياجاته، وما يتلاءم ممّا نعرفه من طرق عمل منذ عقود تستجيب لحاجيّات المجتمع بشرائحه كافّة -وبخاصّة ضحايا العنف الجندريّ-، ومعرفة من هم شركاؤنا وشريكاتنا، ومن هم حلفاؤنا وحليفاتنا في العمل، ومن هم "خصومنا".

آليّات العمل لمكافحة العنف الجندريّ

إنّ هذه الأزمة أظهرت على نحوٍ جليّ حاجةَ كلّ منّا إلى الآخَر. العمل النسويّ بحاجة إلى العمل المهنيّ: المهنيّة التي تعمل في مؤسّسة أهليّة بحاجة إلى المهنيّة التي تعمل في مكتب الخدمات الاجتماعيّة. كلٌّ منّا يكمّل الآخر. مجتمعنا لا يريد أن يقرأ منشورًا أو يسمع خطابات رنّانة، بل هو بحاجة ماسّة إلينا، إلى خبراتنا وإلى مهنيّتنا؛ إلى عملنا الفعليّ في الميدان؛ إلى المرافَقة وإلى الدعم. كلّنا نريد أن نساند وندعم مجتمعنا ونقضي على ظاهرة العنف الجندريّ، لكنّنا أحيانًا لا ندري: من أين نبدأ؟ وكيف نبدأ؟ وكيف نتعاون؟ وكيف ننسّق بيننا هذا التعاون والعمل المشترك؟ إنّ حسن النيّة قائم، لكن إمكانيّة ترجمته غير متوافرة؛ وذلك لفقدان ثقافة العمل المشترك والمتكامل.

للعمل على التغيير الاجتماعيّ آليّاتٌ تتكوّن نتيجة للتجربة العامّة التي تبدأ بالممارسات اليوميّة والمسائل الحياتيّة الصغيرة، والتي إنْ بقيت دون قفزة نوعيّة سوف تترك تحتها فراغًا يُسقِط هذه التجربة على نحوٍ مفاجئ، ويقطع ما بين مركّبات هذا العمل. توفير الملاءَمة والتنسيق والعمل المشترك يتيح للناشطات والمهنيّات أن يتسلّموا العمل الشامل والكامل في طريق إيجاد حلّ جذريّ لأزمة العنف الجندريّ.

*د. منال شلبي، باحثة وناشطة نسويّة، مؤسِّسة ومديرة جمعيّة آذار - المنتدى المهنيّ لمحاربة جرائم قتل النساء - حيفا.

الرجوع لقائمة المحتويات

Jadal جدل

.3
الكورونا في السياق الفلسطينيّ العام بين الوطني واليومي

تمثّلات البنْية الاستغلاليّة الاستعماريّة الإسرائيليّة للعمّال الفلسطينيّين خلال جائحة كورونا

* أحمد عزّ الدين أسعد

تُجْمِع العديد من الدراسات المعاصرة على أنّ المشروع الصهيونيّ في فلسطين، وتمثُّلاته البنيويّة (كالدولة والجيش والإعلام والاقتصاد وغيرها) هي تجلّيات لِبنًى لمشروع استعماريّ استيطانيّ.[1]

إلى جانب القراءات الكثيفة لمشروع الاستعمار الإسرائيليّ كمشروع استعمار استيطانيّ، برزت مؤخّرًا مجموعة من الدراسات التي أنتجها باحثون فلسطينيّون (أحمد جميل عزم؛ أحمد عزّ الدين أسعد؛ أشرف بدر) يقرأون الاستعمار الإسرائيليّ ضمن جدليّة الطابع الاستغلاليّ والاستيطانيّ في بنْية الاستعمار الإسرائيليّ، من خلال استغلال العمّال والموارد الفلسطينيّة، وطبيعة السلوك الاستعماريّ في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة؛ إذ ترى هذه الدراسات أنّ إسرائيل وَظّفت على مدار عقودٍ بنْيةَ استغلال استعماريّ إلى جانب بنْية الاستعمار الاستيطانيّ، بغية تفكيك المجتمع الفلسطينيّ المستعمَر وبناء مجتمع الاستيطان الاستعماريّ، لتعزيز أواصر التبعيّة والهيمنة والانكشاف لصالح تفوّق مجتمع المستعمِرين على حساب مجتمع المستعمَرين.

لقد تكثّفت محاولات الاستغلال الاستعماريّ للفلسطينيّين إبّان جائحة كورونا التي انتشرت في فلسطين مطلع آذار (2020) وما زالت حتّى كتابة هذه السطور. يركّز هذه المقال على بعض مظاهر الاستغلال الاستعماريّ الإسرائيليّ للعمّال الفلسطينيّين، ذلك الاستغلال الهادف إلى تعميق الارتباط البنيويّ بين الأراضي الفلسطينيّة المستعمَرة عام 1967 مع بنْية الاستعمار الاستيطانيّ الاستغلاليّ الإسرائيليّ، بالتزامن مع برنامج الحكومة الإسرائيليّة القائم على الضمّ لمناطق واسعة من الضفّة الغربيّة.

لقد استغلّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ بنيامين نتنياهو انتشار فيروس كورونا في المجتمع الإسرائيليّ وفي المجتمع الفلسطينيّ، بالتزامن مع انتشار هذا الفيروس عالميًّا، إلى جانب انتشار فيروس الشعبويّة والعنصريّة والإرهاب في أرجاء متعدّدة من العالم، للتهرّب من محاكمته بتهم الفساد والرشوة، وقد عمل نتنياهو على استثمار لحظة الجائحة لعقد اتّفاق مع خصمه السياسيّ المعارض "بيني چانتس"، وشكّل حكومة ائتلافيّة على مبدأ التناوب على رئاسة الوزراء بينهما بالمناصفة. إنّ استثمار نتنياهو للجائحةِ وانتشارِ الفيروس استثمارًا سياسيًّا لم يكن هو الاستثمار الوحيد للطبقة السياسيّة الحاكمة في إسرائيل، بل لقد استُثمِرت الجائحة لإعلان برنامج الحكومة الإسرائيليّة (حكومة نتنياهو - چانتس) عن فكرة ضمّ أراضٍ واسعة من الضفّة الغربيّة لإسرائيل، أو سَرَيان القانون الإسرائيليّ عليها. إلى جانب ذلك؛ هناك تشابك في العلاقات السياسيّة الأمنيّة الاقتصاديّة لدى نُخَب إسرائيليّة مؤثّرة في صناعة القرار في إسرائيل، وهناك شبكات مصالح، وبنًى اقتصاديّة وسياسيّة تتقاطع مصالحها وتتباين أحيانًا مع مصالح مراكز الحكم في إسرائيل، وقد دفعت تلك البنى الاقتصاديّةُ السياسيّة قُدُمًا في استثمار الجائحة أو استغلالها لصالح بقاء الاقتصاد الإسرائيليّ معافًى من الانكماش أو الركود أو الانهيار، وذلك وَفق مبدأ استغلاليّ عنصريّ على حساب العمالة الفلسطينيّة وصحّتها.

1. من بين تلك الدراسات، التي تعمّقت في تبيان سِمات البنْية الاستعماريّة الاستيطانيّة الصهيونيّة، دراساتُ كلّ من: فايز صايغ؛ نديم روحانا؛ إيليّا زريق؛ جميل هلال؛ رنا بركات -وغيرهم.

بعد انتشار الڤيروس في مدن وقرى فلسطينيّة في الضفّة الغربيّة، دار جدل كبير في أوساط إسرائيليّة حول إمكانيّات وتصوّرات وشروط عمل العمّال الفلسطينيّين في إسرائيل، وكانت وجهة نظر مجموعة من القوى الاقتصاديّة والاستثماريّة في إسرائيل هي الحاسمة؛ وذلك أنّ قِطاع التشييد والإنشاء في إسرائيل له دَوْر مركزيّ في الاقتصاد الإسرائيليّ، وهو قِطاع يستوعب النسبة الأكبر من العمّال الفلسطينيّين. فقد نوقشت في الكنيست الإسرائيليّ ورقة بعنوان "ورقة موقف بشأن حماية عمّال البناء من ڤيروس كورونا"، وهي ورقة مقدَّمة من جمعيّة بناة أرض إسرائيل، والهستدروت (نقابات العمّال في إسرائيل)، ومؤسّسة تشجيع وتطوير صناعة البناء. وَرَدَ في الوثيقة شرح أوّليّ عن قِطاع الإنشاءات والبناء في إسرائيل، وأهمّ ما جاء فيها أنّ إسرائيل أعلنت أنّ صناعة البناء والبنْية التحتيّة والصناعات المرتبطة بها هي "صناعة أساسيّة" للنشاط الاقتصاديّ الإسرائيليّ، وبحسب إحصاءات تلك الرابطة فإنّ صناعة البناء والإنشاءات توظّف نحو 300 ألف عامل: 205 آلاف عامل إسرائيليّ؛ 64.5 ألف عامل فلسطينيّ من الضفّة الغربيّة؛ 15 ألف عامل أجنبيّ من الصين ومولدوڤا وأوكرانيا، فيما يعمل في الصناعات الإنشائيّة (مصانع الخرسانة، والحديد، والإسمنت، وموادّ ومنتجات البناء...) نحوُ 50 ألفًا آخرين،[2] مع العلم أنّ عدد العمّال الفلسطينيّين من المناطق المحتلّة عام 1967 في الداخل المستعمَر يتجاوز العدد المذكور، إذ إنّه ثمّة عمّالٌ في المستوطنات لم يُحتَسَبوا، وعمّالٌ بدون تصاريح، وعمّالٌ يعملون بتصاريح ليست تصاريح عمل (نحو: تصريح لَمّ الشمل، وتصريح التجارة، وغيرهما)، ويبلغ مجموع عددهم ما يتراوح بين 170,000 وَ 200,000 عامل.

يحرّك قِطاع البناء والإنشاءات ما يقارب 12-11% من الناتج المحلّيّ الإجماليّ، وهو أحد المحرّكات الحاسمة للاقتصاد الإسرائيليّ؛ فوَفق التقديرات (آذار 2020)، بلغ عدد الشقق التي قيد الإنشاء في إسرائيل 116 ألف شقّة، ووَفقًا لبيانات بنك إسرائيل للبناء وصناعة البنْية التحتيّة، يبلغ الائتمان نحو تريليون شيكل من جهات مصرفيّة وغير مصرفيّة. لذا، اتّخذت الحكومة الإسرائيليّة قرارها بالسماح للعمّال بالمبيت في إسرائيل، وهذا القرار جنّب الشركات الإسرائيليّة خسارات كبرى، كانت ستقع لو توقّف دخول العمّال الفلسطينيّين عن عملهم، مع العلم أنّ دخول العمّال رُتِّب بطريق سريعة جدًّا ولم يحظَ غالبيّتهم بمعايير السلامة والوقاية، وقد برز هذا في إصابات كثيفة تعرّض لها العمّال الفلسطينيّون، ولا سيّما أولئك العاملون في مسلخ الدجاج في مجمع عطروت الصناعيّ.

على نحوِ ما بيّنت في دراسة سابقة بشأن استغلال إسرائيل للعمّال إبّان فترة كورونا، نجحت إسرائيل في استخدام العمالة الفلسطينيّة كوسيلة لدمج الأراضي المحتلّة وضمّها وعزلها في آن. "فخلال جائحة كورونا (آذار – حزيران 2020) عملت إسرائيل على ممارسة هيمنتها المطلقة على العمالة الفلسطينيّة وقامت بالتحكّم بدخولها وخروجها، وأجبرت العمّال على العمل لمدّة ما تقارب 60 يومًا في الموجة الأولى من الجائحة، ومدّة تقارب 30 يومًا في الموجة الثانية من كورونا، فمارست السلطة الإسرائيليّة هيمنتها وسياساتها الاستعماريّة والاستغلاليّة بشكل مباشر على العمالة الفلسطينيّة. ويمكن القول إنّ هذا الاستغلال كان مزدوجًا: بناء اقتصاد الاستعمار الإسرائيليّ من خلال أيدٍ عاملة ماهرة ورخيصة التكلفة؛ وإلى جانب ذلك ضرب الاقتصاد الفلسطينيّ وفرص نموّه، وإلحاقه على نحوٍ هامشيّ بالاقتصاد الإسرائيليّ، والهيمنة على الضفّة الغربيّة وعلى ما يقارب 200 ألف عامل وأُسَرهم، بسبب خوفهم من فقدان مصدر عملهم أو فقدان التصريح".[3]

2. مقرّ السلامة في فرع البناء. (2020، 30 آذار). **ورقة موقف بشأن حماية عمّال البناء من ڤيروس كورونا - مقرّ سلامة الفروع** (مقدّمة للنائبة عايدة توما رئيسة اللجنة الخاصّة لشؤون الرفاه والعمل). (بالعبريّة)

3. أسعد، أحمد عزّ الدين. (2020، صيف). العمّال وكورونا: مختبرًا للاستعمار الاستيطانيّ الاستغلاليّ الإسرائيليّ. **شؤون فلسطينيّة**، عدد 280. القدس: مركز الأبحاث - منظّمة التحرير الفلسطينيّة. ص 124-125.

إلى جانب ذلك، تعاملت إسرائيل وبناها الاستعماريّة والاستغلاليّة بطريقة مهينة مع العمالة الفلسطينيّة خلال جائحة كورونا؛ فقد نشر عامل فلسطينيّ في 2020/3/19 فيديو على موقع فيسبوك يبيّن فيه طرد الشرطة الإسرائيليّة لمجموعة من العمّال بعد مداهمة مكان مبيتهم ومطالبتهم بالعودة إلى الضفّة الغربيّة، ووصف العامل عمليّة دخولهم صباحًا مع أمتعتهم عبر الحواجز بِـ "التغريبة الفلسطينيّة". ولم يوفّر المشغّلون الإسرائيليّون ظروفًا ملائمة لمبيت العمال؛ فكثيرون من بينهم كانوا يبيتون في مكان العمل، وبعضهم كانوا يبيتون في أماكن مكتظّة تفتقر للشروط الصحّيّة المطلوبة،[4] وآخرون كانوا ينامون بجوار الشوارع، وبين أشجار الزيتون، وفي أزقّة الأحياء المقدسيّة.

تعامل الأطبّاء والشرطة في "إسرائيل" بطريقة ساديّة استعماريّة مع العامل مالك غانم (29 عامًا)، عندما رفضوا إدخاله إلى المستشفى بسبب ارتفاع درجة حرارته، وأجروا له الفحوصات على مدخله، ومن ثَمّ سلّموه للشرطة الإسرائيليّة التي ألقته على حافة الطريق عند حاجز بيت سيرا بالقرب من مدينة نابلس في 2020/3/23. تبيّن لاحقًا، بعد إجراء الفحوص الطبّيّة في المختبرات الفلسطينيّة، أنّ غانم غير مصاب بڤيروس كورونا، وبعدها بأيّام أُلقي بعامل آخر في سلفيت بطريقة مشابهة؛ أي إنّ إسرائيل تستغلّ قوّة العامل وتهدرها في تكثيف عمليّة الاستعمار وبناء الدولة الاستعماريّة، وتستغلّ ضعفه فتلقي به على قارعة الطريق دون الاكتراث بالقوانين العمّاليّة أو الحقوقيّة الإنسانيّة.[5] في الإمكان اعتبار ذلك السلوك الاستعماريّ الاستغلاليّ مؤشّرًا أساسيًّا على تجلّي البنْية الاستغلاليّة الاستعماريّة التي تهدف إلى استغلال العامل وقوّة عمله، ثمّ إزالته والتخلّص منه عند تعرّضه لأيّ مرض، ورميه بطريقة مهينة لا تليق بالطبيعة الإنسانيّة.

لم تقتصر بنْية الاستغلال الإسرائيليّ للعمالة الفلسطينيّة على تلك العمالة التي تدخل إلى الأراضي الفلسطينيّة المستعمَرة، وتعمل في قِطاعات العمل الإسرائيليّة المختلفة، وإنّما تجاوزت ذلك؛ فقد بيّن أحمد عزم كيف سهّلت الحكومة الإسرائيليّة بالتعاون مع مسؤولين من حركة حماس في قِطاع غزّة عمليّةَ تصنيع واستيراد معدّات طبّيّة من قِطاع غزّة للسوق الإسرائيليّ، وبدأ في مطلع آذار (2020) تصنيع ملابس الوقاية الشخصيّة المطلوبة من أجل التعامل مع ڤيروس كورونا. تعاقدت الشركات الإسرائيليّة مع شركتين كبيرتين في القِطاع، دورهما تعهيد العمل لمشاغل أصغر.[6] المقصود أنّ الاستغلال الاستعماريّ للعمالة الفلسطينية إبّان الجائحة رفع من شأن أوّليّات الاقتصاد وتوفير المستلزمات الأوّليّة الطبّيّة ووضعها فوق كلّ الاعتبارات الأخرى. وكان تنفيذ تلك الأوّليّات مرهونًا باستغلال اليد العاملة الفلسطينيّة في العمل في القِطاعات المختلفة، كما برز سوق عمالة سوداء تستغلّ بعض العمّال الفلسطينيّين بالعمل في المَرافق الطبّيّة الإسرائيليّة في مجال التنظيف والتعقيم مقابل أجرة ماليّة عالية، لأنّ بعض العمّال تركوا العمل في المَرافق الصحّيّة خوفًا من الإصابة بالڤيروس. وعلى الرغم من الأجرة العالية هنا التي يمكن أن يرى البعض أنّها منصفة ماديًّا، فإنّها استغلال أخلاقيّ وصحّيّ؛ لكون العَوَز هو ما يدفع بالعامل إلى المخاطرة في ذلك العمل الخطير.

يمكن الاختتام بالقول إنّ البنْية الاستغلاليّة الإسرائيليّة ظهرت على نحوٍ واضح خلال أزمة كورونا من خلال مجموعة من الممارسات الإسرائيليّة. فعلى سبيل المثال، كانت الحكومة الإسرائيليّة قبل أزمة

4. أسعد، أحمد عزّ الدين. (2020، نيسان). سياسات إسرائيل تجاه العمّال الفلسطينيّين: ثالوث العنصريّة، والڤيروس، والجوع. **تقدير موقف متابعات**. القدس: مركز الأبحاث - منظّمة التحرير الفلسطينيّة.

5. المصدر السابق.

6. عزم، أحمد جميل. (2019، شتاء - 2020، ربيع). "الانفكاك والكورونا".. ونهج تنمويّ جديد. **شؤون فلسطينيّة**، العددان 278-279. القدس: مركز الأبحاث - منظّمة التحرير الفلسطينيّة. ص 10.

كورونا تفرض خلال أيّام الأعياد اليهوديّة إغلاقًا كاملًا، وتمنع دخول العمّال الفلسطينيّين بالتذرّع بحجج أمنيّة، لكن خلال أزمة كورونا، ولأنّ المصلحة الاقتصاديّة أصبحت تقتضي مبيت العمّال داخل إسرائيل، سُمِح لهم بالمبيت لفترات زمنيّة طويلة، بما في ذلك فترات الأعياد اليهوديّة أيضًا. بينما كان الجيش بذريعة دخول العمّال بطرق التهريب يُطلِق النار عليهم، وهناك أكثر من حادثة أُطلقت فيها النار على العمّال، واستُشهِد بعضهم وأُصيب آخرون، سهّل خلال فترة الكورونا ورعى دخولَ العمّال عبْر ما يقارب 350 فتحة في جدار الفصل العنصريّ، وفتح لهم عَبّارات المياه والبوّابات للدخول والخروج بصورة ميسّرة دون علم لجان الطوارئ الفلسطينيّة. جاءت تلك الممارسات الإسرائيليّة وغيرها لهدف أساسيّ هو استمرار المبنى الاقتصاديّ الإسرائيليّ وعدم توقّفه أو تعطّله، لِما لتعطُّل تدفُّق العمالة الفلسطينيّة إلى إسرائيل من تأثير على العديد من القِطاعات التي تُعتبر أساسيّة في الاقتصاد الإسرائيليّ -مثل قِطاعات التشييد والبناء، والزراعة، والصناعة، وغيرها.

على الرغم من اهتمام الاحتلال بتدفّق اليد العاملة الفلسطينيّة إلى العمل في السوق الإسرائيليّ، مارس هذا الاحتلال العنصريّة والتهميش وعدم الاكتراث بصحّة العمّال الفلسطينيّين؛ إذ إنّ الهمّ المركزيّ كان استمرار الربح الاستعماريّ الإسرائيليّ، على حساب استغلال صحّة وقوّة عمل العامل الفلسطينيّ.

*أحمد عزّ الدين أسعد هو باحث في الدراسات العربيّة والإسرائيليّة؛ فلسطين.

الرجوع لقائمة المحتويات

الضغوط الحياتيّة النفسيّة _ الاجتماعيّة والاقتصاديّة لدى المرأة الحامل، في داخل السياق الثقافيّ الفلسطينيّ في ظلّ أزمة الكورونا

غادة جمهور-حلواني*

مهدي حلواني**

ملخّص

تخوض المرأة الحامل تجربة احتضان جَنين داخل رحمها تُرافقها مجموعةٌ من التغيُّرات الهرمونيّة والجسمانيّة التي تجعلها تعيش مرحلة خاصّة بكلّ ما تحتويه من تعب وأمل. فمرحلة الحمْل هي من التجارب الحياتيّة التي تحمل في طيّاتها الكثير من الأولويّات المرتبطة بمتابعة الطبيب، وتوفير الغذاء الصحّيّ والڤيتامينات المناسبة للمرأة، وتجهيزات المولود الجديد، وإجراءات وترتيبات الولادة؛ فكيف يؤثّر الظرف الآنيّ من انتشار الڤيروس على النساء الفلسطينيّات الحوامل؟

يسعى المقال إلى **فهم الوضع المَعيش لدى المرأة الفلسطينيّة الحامل في المناطق المحتلّة عام 1967**، خلال فترة انتشار جائحة كوڤيد-19 المستجدّ **ومعرفة حجم الضغوط التي تواجهها ونوعيّتها داخل سياق المجتمع الفلسطينيّ بثقافته وممارساته اليوميّة، وفهم حاجات المرأة في هذه المرحلة، وتوقّعاتها من المحيطين بها وتوقّعاتهم منها، وكيفيّة تعاملها مع الصعوبات القائمة حاليًّا. يركّز البحث تحديدًا على منطقة القدس**. اعتمدت الدراسة على منهجيّة البحث النوعيّ من خلال مقابلات معمّقة مع 20 من النساء الحوامل موزّعات على مناطق مختلفة من مدينة القدس وضواحيها.

تشير نتائج البحث إلى أنّ انتشار الجائحة يؤدّي بالنساء الحوامل إلى العديد من الضغوط، في مقدّمتها الضغوطُ النفسيّة كالقلق والوساوس ذات الصلة بالتنظيف والتعقيم والصحّة، والتي تؤثّر على سَيْر الحياة اليوميّة، تليها الضغوطُ الاقتصاديّة بسبب ترك معيلي الأسر لأعمالهم وخاصّة العمّال وأصحاب المهن الحرّة، وهو ما قد يمنع من تأمين مصاريف وتجهيز المولود الجديد. وفي الدرجة الثالثة، تأتي الضغوط المرتبطة بالوضع القانونيّ والاجتماعيّ؛ إذ واجهت العديد من النساء الحوامل صعوبات في الوصول إلى الطبيب/ـة لمتابعة صحّة الجنين وإجراءات الفحوص الدوريّة اللازمة لكلّ شهر، ولا سيّما أثناء التنقّل من القرية إلى المدينة، وصعوبات أكبر في ترتيب إجراءات الولادة إذا عُرف أنّ المرأة جاءت منطقةً موبوءة بالڤيروس فتسبّب الأمر في ارتفاع معدّل القلق لدى النساء في الأشهر الأخيرة أكثر من النساء الحوامل في الأشهر الأولى.

برز دَوْر الزوج كعامل مساند في تخفيف الضغوط عن زوجته نتيجة هذه الصعوبات ومساندتها مساندةً مباشرة في تحمُّل الأعباء المنزليّة، ومرافقتها باستمرار إلى الطبيب/ـة (إن أمكن وصولهما -بفعل الإغلاقات في عدّة محافظات)، ممّا أسهم في بعض التخفيف من توتّر معظم النساء اللواتي يتضمّنهنّ البحث. كذلك لمسنا خلال البحث لجوء النساء إلى الإيمان بالقضاء والقدر اللذَيْن يمنحهنّ الإيمانُ المطلَقُ بهما الأملَ بما هو قادم، ويقلّل من الأفكار والمشاعر السلبيّة، ويساعد في التكيّف بإيجابيّة مع الوضع القائم.

لا شكّ في أنّ البشر وسائر الكائنات خاضوا على مرّ العصور -وما زالوا يخوضون- العديدَ من الكوارث الطبيعيّة وَ/أو البشريّة بمختلف الأشكال، من حروب وأمراض وأعاصير وزلازل وغيرها، ولكنْ تعقيدُ الحضارة، وسرعةُ التغيُّر الاجتماعيّ الثقافيّ لأسباب متداخلة، جعلا من القلق والضغوط مَحاور لأبحاث في الدراسات النفسيّة. أمّا من الناحية الإجرائيّة، فيمكن تعريف الضغوط الحياتيّة بأنّها حدث أو مجموعة من الأحداث المفاجئة والمستمرّة لفترة زمنيّة معيّنة، تؤدّي إلى رفع نسبة التوتّر والقلق لدى الفرد، ويمكن أن تتسبّب أيضًا في أعراض نفسيّة جسميّة (كقرحة المعدة، والصداع المستمرّ، والقولون العصبيّ -على سبيل المثال). وأمّا من الناحية النظريّة، فهي الأحداث التي تكون على درجة من الشدّة والدوام بما يثقل القدرة التوافقيّة لدى الفرد -وهي القدرة التي تساعد الفرد في الوصول إلى الاتّزان في حياته، والتي يؤدّي فقدانها إلى الاختلال السلوكيّ والوظيفيّ.[1]

توطئة نظريّة ومراجعة دراسات سابقة

تركّز الكثير من الدراسات السابقة الأجنبيّة والعربيّة على **معرفة حجم ومقدار الضغوط** التي تواجه المرأة الحامل أثناء رحلة الحَمْل، وذلك من خلال استخدام اختبارات نفسيّة تُوزَّع على النساء الحوامل لتعبئتها، كمقياس الاكتئاب ومقياس ضغوط الحياة، بينما يعتمد بحثنا هذا منهجيّة البحث الكيفيّ لأنّه يلائم طبيعة الدراسة وأهدافها، في ظلّ أزمة كورونا التي تستدعي تعاطيًا مختلفًا ومركّبًا. نلخّص هذه الأسباب والنتائج على النحو التالي:

تتعرّض النساء لدرجة عالية من الضغط النفسيّ وذلك لعدّة أسباب، من بينها تأخُّر الحَمْل لأكثر من عام بعد الزواج، أو تجاوز المرأة الحامل لسنّ التاسعة والعشرين، أو أن يَكون الحَمْل ثانيًا أو ثالثًا أو ما بعد الثالث، حيث يقلّ الدعم والمساندة الاجتماعيّة للمرأة في الحَمْل الذي بعد الحَمْل الأوّل.[2] فضلًا عن ذلك، بيّنت العديد من الدراسات العالميّة أنّ ثمّة أسبابًا نفسيّة واجتماعيّة قد تؤدّي بالحوامل إلى أعراض اكتئاب قبل الولادة، ومن هذه الأسباب:[3] تقدير الذات المنخفض لدى النساء أثناء فترة الحَمْل والذي يجعل النساء أكثر حزنًا؛ قلّة دعم الحامل دعمًا اجتماعيًّا أثناء الحَمْل، بالإضافة إلى العمليّات العقليّة السلبيّة وطريقة التفكير التي تمرّ بها الحامل بسبب الأزمات المحيطة بها، وانخفاض مستوى الدخل.

تأثير الحالة النفسيّة على السيّدة الحامل

- يؤدّي القلق والاكتئاب إلى إنتاج هرمونات تحفّز عمليّة الولادة المبْكرة.[4]
- تؤدّي الضغوط النفسيّة وارتفاع مستوى القلق إلى انخفاض في وزن الجنين، وإلى حدوث الولادة المبْكرة ذات الخطورة الطبّيّة على المرأة الحامل.[5]
- تظهر العديد من الأعراض الجسديّة والنفسيّة للمقْبِلات على الولادة نتيجة قلقهنّ النفسيّ.[6]

1. عبد المعطي، حسن مصطفى. (2006). **ضغوط الحياة: وأساليب مواجهتها**. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.

2. الريماوي، عمر طالب؛ عبد الله، تيسير محمّد. (2012، كانون الأوّل). الضغوط النفسيّة لدى الأمّ الحامل في منطقة رام الله - فلسطين. **مجلّة العلوم التربويّة والنفسيّة**، 13(4). جامعة البحرين: مركز النشر العلميّ.

3. Leigh, Bronwyn, & Milgrom, Jeannette. (2008). Risk factors for antenatal depression, postnatal depression and parenting stress. **BMC psychiatry**, 8 (24). Pp. 1-11.

4. Dayan, J., Creveuil, C., Herlicoviez, M., Herbel, C., Baranger, E., Savoye, C., & Thouin, A. (2002). Role of anxiety and depression in the onset of spontaneous preterm labor. **American journal of epidemiology**, 155 (4). Pp. 293-301.

5. Lobel, M.; Dunkel-Schetter, C., & Scrimshaw, S. (1992). Parental maternal stress and prematurity: a prospective study of socioeconomically disadvantaged women. **Health Psychology**, 11 (1). Pp.32-40.

6. بو عقال، سميّة. (2017). **القلق النفسيّ عند المرأة المقبلة على الولادة: دراسة ميدانيّة**. رسالة لنيل درجة الماجستير، جامعة أمّ البواقي، الجزائر.

المنهجيّة

عملْنا بمنهجيّة البحث الكيفيّ، واعتمدنا أداة المقابَلة المعمّقة افتراضيًّا (عن بعد) عبْر تطبيقات مواقع التواصل الاجتماعيّ (واتسآپ؛ فيسبوك؛ زوم) لجمع المعلومات من أفراد داخل مجتمع البحث؛ وذلك لصعوبة الوصول إلى النساء المشارِكات في البحث في أماكن سكناهنّ أثناء فترة تفشّي ڤيروس كورونا. وطرحنا أسئلة مفتوحة، وذلك ابتغاء أن تتيح هذه النوعيّة من الأسئلة للنساء الفرصة للتعبير عن مشاعرهنّ وعن طريقة مُعايشتهنّ للظروف الراهنة، وأن تمكّنهنّ من إضافة معانيهنّ الخاصّة لتجاربهنّ.

النتائج

الشعور المستمرّ بالقلق

أشارت جميع النساء المشارِكات في البحث إلى الشعور **المستمرّ بالقلق الذي أفضى بهنّ إلى ضغوط نفسيّة كبيرة** في هذه الفترة من انتشار الجائحة. ولكن من الملاحظ أنّ الحوامل في الأشهر الأخيرة من الحَمْل أظهرن قلقًا أعلى من الحوامل اللواتي في الأشهر الأولى أو المتوسّطة منه (من الحَمْل)؛ فقد أشار نصفهنّ إلى درجة كبيرة من القلق بشأن الصحّة والنظافة على نحوٍ خاصّ، وإلى ازدياد توتّرهنّ بسبب مواجهتهنّ لعدّة صعوبات في هذه الفترة والمتمثّلة، قبل كلّ شيء، في **صعوبة الوصول إلى مراكز الرعاية الصحّيّة ومتابعة الحَمْل؛** إذ وجدت جميعهنّ صعوبات كبيرة في متابعة مراحل الحَمْل لدى الطبيبة المتابعة. على سبيل المثال، أشارت المشارِكتان **عطاف ووجدان** إلى عدم قدرتهما على متابعة الحالة الصحّيّة للجنين منذ بداية فترة الجائحة، وأشارت المشاركة **ياسمين** أنّ الطبيبة رفضت استقبالها في ميعاد فحص الجنين الخاصّ بالشهر الرابع، ولم تُجْرِ لها الفحوص الضروريّة لذلك الشهر، ولم تكشف عن جنس الجنين؛ خوفًا من انتقال الڤيروس إلى النساء الحوامل؛ وذلك لعدم تجهيز العيادة وتعقيمها كما يجب. هذه الصعوبات جعلت النساء الحوامل أكثر خوفًا على صحّة الجنين وأكثر حاجة إلى الاطمئنان على أجنّتهنّ، وفي المقابل كانت لدى مجموعة من النساء مخاوف من زيارة الطبيب خشية انتقال الڤيروس إليهنّ. كذلك كان لدى إحدى النساء المشارِكات في البحث ضغوط نفسيّة شديدة بسبب استمرار عمل الزوج كفنّيّ أشعّة داخل مستشفى يَفِدُ إليه مصابون بڤيروس كوڤيد-19، إذ أصبح العمل خارج المنزل خطرًا في بداية انتشار الڤيروس.

صعوبات في إجراءات وترتيبات الولادة

أظهرت النساء الحوامل في الشهر التاسع خوفًا إضافيًّا يتعلّق بالإجراءات التي تسبق الولادة. على سبيل المثال، تواصلت **صوفيا** مع المستشفى الذي أنجبت فيه ابنتها السابقة (وهي تتابع حَمْلها فيه)، إلّا أنّ الإداريّين داخل المستشفى أخبروها بأنّهم لن يستطيعوا استقبالها للولادة؛ وذلك لكونها من إحدى المناطق الموبوءة بالڤيروس، وقد شاركتنا قائلة:

> "أنا خايفة. حاسّة حالي راح أولد بالدار، الهلال برام الله خبّروني إنّي ما بقدر أروح أولد عندهم عشان أنا من قَطْنة، مع إنّي مش مختلطة ولا بأيّ شخص مصاب، وملتزمة بالبيت مع زوجي وبنتي".

هذا يُظهر لنا أنّ الحَمْل في هذه الظروف الاستثنائيّة أصعب من أيّ دور آخر.

تسليط الضوء على الحَمْل لدى النساء المشارِكات في البحث مكّننا من فهم مجموعة من المشاعر المختلطة المتراوحة بين الحفاظ على النفس من الڤيروس، والفرح لاستقبال مولود جديد؛ فالنساء يحاولن مجاراة الظروف ويَحملن أعباء أكبر بكثير ممّا قد يتخيّله الرجال.

الضغوط الاقتصاديّة

أبدت معظم النساء قلقًا من عدم القدرة على تأمين مصاريف وتجهيز المولود الجديد، حيث اتّضح أنّ أزواجهنّ تركوا أعمالهم منذ بداية شهر آذار، أي منذ إعلان السلطة لحالة الطوارئ، بما في ذلك الأزواج الذين لديهم أعمال حرّة، مثل أعمال التجارة، إذ ارتبط ذلك بمشاعر الخوف والقلق على نسائهم، وعلى الأجنّة الذين في أحشائهنّ، من خطر نقل أيّ عدوى لهنّ، إذ من المعروف أنّ مناعة المرأة الحامل تكون ضعيفة، وأنّها تحتاج إلى فيتامينات وغذاء صحّيّ باستمرار.

في هذا، تقول المشارِكة **نجلاء**:

> "الوضع المادّي للبيت صعب كتير. زوجي كان يشتغل عمل حرّ، وحاليًّا فش أيّ مصدر للدخل وأنا في انتظار مولودي الرابع عن قريب. مش حاسّة بأيّ نوع من الأمان ولا الاستقرار. الطريق قدّامي كلّها غامضة".

إنّ ذلك يوضّح حجم الضغط المضاعَف الذي تتعرّض له الحامل نتيجة فقدان الزوج لعمله، ووقف التدفّق الماليّ على الأسرة مع التفكير في كيفيّة استقبال مولود جديد والحاجة إلى الكثير من التجهيزات، الأمر الذي أشرنا إليه أعلاه من خلال أبحاث سابقة.

الدعم الزوجيّ

على الرغم من الصعوبات التي واجهتها النساء، أسهم توافر وسائل الدعم والتكيّف لديهنّ في إعادة تأقلمهنّ وتكيُّفهنّ مع الواقع المفروض، حيث أكّدت 80% من النساء اللواتي جرت مقابلتهنّ على مساندةِ أزواجهنّ مساندَةً كبيرة وتقديمِ الدعم المعنويّ لهنّ ومساعدتِهنّ في إنجاز الأعباء والمهامّ المنزليّة (من مأكل وتنظيف). تقول **ماجدة**:

> "الحمد لله. زوجي بساعدني بكلّ إشي. بما إنّو معطّل، ما بخلّي لا إمّي ولا خواتي يجوا عِنّا يساعدوني. هو صار يجلي ويطبخ ويساعد بالغسيل".

من هنا نرى أنّه في حين كانت فيه الأمّ والأخوات هنّ وسائل الدعم التقليديّة للنساء الحوامل، قبل حالة الطوارئ، فإنّ الرجل في هذه الفترة أصبح هو الذي يقوم بدَوْر داعم على نحوٍ رئيسيّ؛ فبقاء الرجل في المنزل إلى جانب زوجته جعله المُسانِد الرئيسيّ والأوّل لدى 80% من المشارِكات في البحث، بسبب الانقلاب الحاصل في الحياة اليوميّة الاعتياديّة، ونرى أنّ الرجل أعاد دَوْره الداعم للمرأة الذي كان متعارَفًا عليه في العائلة الفلسطينيّة الريفيّة تاريخيًّا؛ إذ نجد أنّنا قادرون على تغيير أدوار المرأة والرجل وإعادة تقسيم الأدوار الاجتماعيّة على نحوٍ يقوم على مساواة ومشاركة حقيقيّتين.

ولعلّ هذا الظرف الصحّيّ العالميّ جاء لصالح النساء الحوامل؛ فالدعم الاجتماعيّ الذي تتلقّاه المرأة خلال الحَمْل يخفّف من الضغط النفسيّ، ويخفّف من ظهور أعراض الاكتئاب لديها، وهذا ما يتطابق مع دراسة لاي وميلچروم (2008) التي تشير نتائجها إلى أنّ النساء الحوامل يتعرّضن للضغط النفسيّ نتيجة قلّة الدعم الاجتماعيّ.

بَيْدَ أنّه من جهة أخرى، أشار 20% من المشارِكات في البحث أنّ الأمّ -على الرغم من دعم الأزواج المستمرّ لهنّ- هي الداعم الرئيسيّ والأوّل لبعضهنّ؛ بسبب القرب العاطفيّ بين الأمّ والابنة، وبخاصّة في تجربة الحَمْل والولادة.

الإيمان بالقضاء والقدر

خلال المقابَلات، حاولت المشارِكات في البحث اللجوء إلى عبارات ذات صلة بالجانب الروحانيّ باستمرار، ممّا يدلّ على **الإيمان بالقضاء والقدر**، حيث ذكرت جميعهنّ أكثر من مرّة خلال المقابلة اتّكالهنّ على الله، واستمرارهنّ في الدعاء والصلاة، وإيمانهنّ الكامل بأنّ الذي يكتبه الله هو وحده الذي سيحصل. ومن بين هذه المقولات: "*الحمد لله ربّ العالمين، دايمًا في فرج وراح تنفرج*"؛ "*لن يصيبنا إلّا ما كتبه الله لنا ونعم بالله*"؛ " *الحمد لله عكلّ إشي بصير*".

هذه المشاعر تساعد على التخفيف من مشاعرهنّ السلبيّة، وتعزّز من قدراتهنّ على الصبر والتحلّي بالهدوء النفسيّ بديلًا عن الانهيار، وبديلًا عن الاستمرار في التفكير في المستقبل القريب والمستقبل البعيد في آن واحد؛ فالحالة الإيمانيّة داخل سياق المجتمع الفلسطينيّ، بثقافته الإسلاميّة التي تعتمد في تفسير الأمور على الدين في أغلب شؤون حياته والإيمان بإله يملك القوّة، مقابل ضعف الناس واستسلامهم له، هذه الحالة كانت مساعِدة للمشارِكات في تخطّي صعوبات أزمة كورونا؛ فمن خلال الإيمان بالقدر يستسلم الفرد ويجرَّد الإنسان من المسؤوليّة باعتبار أنّ الله على كلّ شيء قدير، فهو الذي أراد هذه الآلام وهذا البؤس، وهو الذي رسم هذا المصير. هذا الإيمان يشكّل متّكأً لكثيرات من النساء الفلسطينيّات للاستمرار في حياتهنّ بصورة عامّة، ومواجهة الظرف الحاليّ على نحوٍ خاصّ.

الخاتمة

نسترجع بذاكرتنا مرورنا بتجربة انتظار طفلنا الأوّل قبل عام ونصف، هذه التجربة الفذّة والعظيمة وتَرافُقها مع الكثير من الضغوط الحياتيّة التي عشناها، ونفكّر في الأزواج الذين يعيشون اليوم في ظلّ أعلى مستوى من الضغوط إزاء الوضع الراهن، حيث الكوكب تجتاحه جائحة عالميّة وهم في انتظار لمواليدهم الجدد. أتاح لنا البحث التعمّق في أكثر تجارب النساء قدسيّة، وقد رافقَنا خلال البحث شعور طافح بالتعاطف والتقدير تجاه جميع النساء المشارِكات في البحث، من حيث حجم وكيفيّة ومقدار الضغوط التي واجهتهنّ خلال هذه الفترة وفرضت عليهنّ حِمْلًا أثقل من الحِمْل الذي في داخلهنّ، إذ لقد تبيّن خلال البحث الصعوباتُ والتحدّيات التي واجهتهنّ في الوصول إلى الطبيب وإتمام إجراءات الولادة، وتبيّن كذلك أنّ الكيفيّة التي تعاملت بها النساء مع الوضع الراهن من انتشار فيروس كوفيد-19 تنمّ عن شخصيّة المرأة التي تحاول أن تثبت قدرتها على الصبر والتحمُّل، مع الاتّكاء على الإيمان بالله وبالقضاء والقدر، على الرغم من الضغط النفسيّ الذي يعايشنه في هذه المرحلة؛ إذ هنّ لا يخفينه فحسب، بل لقد زاد عطاؤهنّ وخوفهنّ على عائلاتهنّ وأبنائهنّ.

* غادة جمهور-حلواني، مرشدة نفسيّة وتربويّة، حاصلة على درجة البكالوريوس في علم النفس وعلم الاجتماع من جامعة بيرزيت.

** مهدي حلواني، مرشد نفسيّ وتربويّ، طالب لنيل درجة الماجستير في علم النفس المجتمعيّ من جامعة بيرزيت.

الرجوع لقائمة المحتويات

فلسطين في ظلّ الكورونا بين اليوميّ والقوميّ: تأمّلات شخصيّة

زينة أبو زرقة*

قد لا نكون حقًّا "أرضيّون تحتيّون نخشى الشمس والنورا"، كما قال نزار قبّاني في قصيدته "لماذا في مدينتنا؟".

فمنذ بداية معترك هذه الجائحة، العالَم كلّه في حَجْر صحيّ كبير أثّر على أصغر تفاصيل حياتنا. وعلى الرغم من التباعد الاجتماعيّ الوجاهيّ، وجد العالَم في حَجره الصحّي طرقًا مختلفة أكثر من مبدعة للحفاظ على التواصل الاجتماعيّ والروحانيّ، واستطاع كسر الحواجز بطريقة لا تخالف التعليمات الصادرة عن الجهات المسؤولة.

أمّا في فلسطين، وهي لُبّ مقالي، فمن خلال وسائل الاتّصال الاجتماعيّ التي ازدادت أهمّيّتها خلال هذه الفترة، لكونها الرابط الذي يستطيع أن يصل بيننا على الرغم من البعد، استطاع الشعب الفلسطينيّ (والشباب الفلسطينيّ على وجه الخصوص) في جميع أنحاء فلسطين التاريخيّة الخروجَ إلى النور مبتعدًا عن التحتيّة وانعكاساتها -أي بقائنا في البيوت-؛ إذ أسهمت المنصّات الإلكترونيّة المليئة بالمنتجات الثقافيّة (كعروض الصوت والصورة في بثّ حيّ ومباشر بجودة لا بأس بها) في إظهار حضور الشباب الفلسطينيّ والتواصل في ما بين أفراده ومع العالم الخارجيّ.

يتناول المقال، من خلال التأمّل في بعض النماذج التي رصدتها في الشهور الأخيرة، إحدى الزوايا المضيئة القليلة لهذه الأزمة، أو إحدى الطرق المبدعة في تحدّي الأزمة، وهي التواصل الثقافيّ الفلسطينيّ عبر المنصّات الإلكترونيّة في مجالات عديدة تهمّه وتشغله؛ أذكر منها ألوانًا من الفنّ، كالموسيقى بأنواعها والسينما، بالإضافة إلى منصّات الحِواريّات الافتراضيّة والنقاشات التي تتطرّق إلى السياسة والفلسفة والثقافة، وكذلك إلى ما نحن مشهورون ومعروفون به: المطبخ الفلسطينيّ.

هذا التواصل مكّن الشباب الفلسطينيّ، على المستوى الفرديّ، من مقاومة الاكتئاب الناتج عن البقاء في البيوت في ظلّ الأزمة، ولكنّه على المستوى الجماعيّ قاوم التشتّت والبعد الذي يفرضه علينا الواقع السياسيّ الاستعماريّ.

راديوهات فلسطينيّة

خلال فترة جلوسي في البيت كحال الآخرين، بدأت رحلتي في اكتشاف ما حولي من أمور قد جهلتها أو أمور لطالما أردت أن أعرف عنها أكثر ولم أفعل، لضيق الوقت ولامتلاء وقتي بالعمل والدراسة. أحد الأمور التي جهلتها هو وجود الكثير من الراديوهات والمنصّات السمعيّة المنتشرة في مدن فلسطين من رام الله إلى القدس وبيت لحم والناصرة، والتي تشكّل منصّات للاستماع والنقاش والحِوار -ولا سيّما في ظلّ أزمة كورونا.

في حديث لي مع راديو "نَرْد"،[1] قال لي مسؤول الراديو السمعيّ: "أنا من الـ 2014 عم أحاول أشتغل على الراديو وأطوّر منّه، أجت كورونا والكلّ قعد بالبيوت، وتشكّلت فرصة ووقت نسمع موسيقى ونتعرّف على أنواع موسيقى جديدة. من خلال الموسيقى والقعدة بالبيت عم نتقرّب للجمهور وأهل البلد أكتر". وأضاف كذلك أنّ الإنترنت هو المحيط الذي بواسطته ننسجم في ما بيننا في ظلّ هذه الفترة وصعوباتها.

1. راديو تبثّ من محافظة بيت لحم. الموقع الرسميّ للراديو، https://www.radionard.net

من خلال هذه المنصّات، كمثل راديو الحارة[2] وراديو نَرْد، ومثلهما العديد من الراديوهات والإذاعات الأخرى، فُتِحت المساحات بشكل موسّع للجمهور كي ينخرط في الإثراء الثقافيّ والمعرفيّ الذي توفّره البرامج الحِواريّة التي تبثّها الراديوهات، بالإضافة إلى الموسيقى المتنوّعة التي تثري المستمِع؛ إذ ترى هذه الراديوهات أنّ الموسيقى هي غذاء الروح ولغة الحياة، وأنّه من خلالها يمكننا التغلّب على مَلل هذه العزلة.

> "العزلة جميلة والراديو بدأ من العزلة فإحنا مش معطّلين وشغّالين على طول، والراديو بوجوده عم يعطي المساحة للناس إنّه تحكي شو عندها، لكلّ حدّ في المجال يلعب على الراديو ويحكي على الراديو بالمواضيع يلّي بِتْهمُّه".

هذا ما قاله لي أحد مؤسّسي راديو الحارة، عندما سألت أعضاء الراديو عن حالهم في هذه العزلة. بالإضافة إلى ذلك، أشاروا أنّه من خلال الراديو يتّسع التواصل، فلا يكتفي أن يشمل القريب، بل يتّسع ليشمل البعيد كذلك، فمفهوم الحارة لا يتطرّق إلى مفهومها الفيزيائيّ فحسب، بل يتطرّق كذلك إلى المفهوم الروحيّ؛ فالعالَم بواسطة الإنترنت أصبح حارة صغيرة، يلتقي فيها الجمهور المحلّيّ والعالميّ، وهكذا نكون في حارة العالَم، أو يكون هو في حارتنا.

راديو الحارة هو أحد تلك الراديوهات التي أستمع إليها مؤخّرًا، ومن خلاله استمعت -على سبيل المثال- إلى برنامج داوود الغول حول كلّ ما يتعلّق بالأرشيف الإسرائيليّ، بالإضافة إلى الحلقات الموسيقيّة المتنوّعة التي تُبَثّ خلال النهار، والموسيقى الكلاسيكيّة من جميع أرجاء العالم والعالم العربيّ، والفولكلور الشعبيّ وَ "دي جي سيت" مباشرة من بيوت الموسيقيّين المحلّيّين -كالناظر (أحد أعضاء شركة بلاتنم الموسيقيّة)[3] مثلًا وغيره.

"خلّيكم معنا عالسمع من غرفة النوم لغرفة القعدة وبالعكس"... كُتِب في موقع راديو الحارة الإلكترونيّ. والفكرة من وراء ذلك هي أنّ من يستمعون إلى هذه المنصّة في ظلّ هذه الظروف هم -في الغالب- يمكثون في البيت؛ "فهذه المقولة تشمل المطبخ وأنحاء البيت كذلك" أضاف أعضاء الراديو.

صورة (1): تعريف عن الراديو حسبما ورد في موقعه الرسميّ.[4]

2. راديو تبثّ من محافظة رام الله. الموقع الرسميّ للراديو، https://yamakan.place/palestine

3. شركة بلاتنم (BLTNM) هي شركة تسجيل إلكترونيّة مقرّها مدينة رام الله، فلسطين.

4. المصدر: الموقع الإلكترونيّ الرسميّ لراديو الحارة.

سينما من البيت

أعلم مدى غرابة الموضوع؛ إذ لطالما اعتدنا أن نستمتع بمشاهدة الأفلام في الصالات السينمائيّة الكبيرة، أمام تلك الشاشات الضخمة والجلوس على المقاعد الحمراء المصطفّة التي تعجّ بالناس الذين ما اجتمعوا في هذه الصالة إلّا لذوقهم الذي يجمعهم في اختيار فيلم معيّن. ولكن بعد حلول الأزمة، أصبح كلّ ذلك مجرّد أفكار تجسّد شوقنا للخروج من البيوت. يجدر بالذكر أنّ الكثير من المؤسّسات والمهرجانات السينمائيّة الفلسطينيّة -كمهرجان إيليا للأفلام القصيرة- عملت جاهدة لتوفّر حلًّا لهذا الشوق، وذلك عن طريق نشر روابط إلكترونيّة لأفلام سينمائيّة فلسطينيّة وعربيّة، منها الروائيّة ومنها القصيرة وغيرها الكثير، على منصّات التواصل الاجتماعيّ كالفيسبوك والإنستجرام، التي من خلالها يتمكّن الجمهور الفلسطينيّ من الاستمتاع بهذه الأفلام المتوافرة لفترة زمنيّة تحدّدها هذه المؤسّسات.

> "نحنا عم نعطي الإحساس يلّي منحسّه بالسينما من البيت، الأفلام موجودة بالفيسبوك والجمهور من كبيره لصغيره عم بحضر. والتفاعل الأوّل هو إنّه كلّ العيلة تتجمّع وتتواصل من خلال الفيلم يلّي عم نعرضه، بالإضافة للأصحاب كمان. وهاد هو التفاعل الثاني؛ مشاركة الأفلام على مواقع التواصل الاجتماعيّ مع الأصحاب والناس يلّي منعرفها، الأفلام والسينما بتجمعنا حتّى من البيت مش بس مع الجمهور يلّي موجود بالبلاد هون، لكن مع الجمهور بالوطن العربي كلّه".[5]

كان هذا بعض ما قال لي يوسف صالحي مدير مهرجان إيليا للأفلام القصيرة. إضافة إلى ذلك، أوضح أنّ الأفلام المعروضة هي من مناطق فلسطين كافّة، من غزّة حتّى الشمال؛ فبذا يكون التواصل بين الناس هو عن طريق تجميعهم روحيًّا وفكريًّا، لكونهم متباعدين جسديًّا. وحين سألته عمّا إذا كان يرى أنّ لظهور الكورونا تأثيرًا إيجابيًّا على ما يحدث في رحاب المهرجان، أجاب:

"كان المهرجان قبل وباء كورونا منحصرًا في مدينة صغيرة. لكن في ظلّ هذه الأزمة، توسّعت هذه المساحة ولم تعد محصورة في القدس وبين أهل القدس، وإنّما تخطّت ذلك لتشمل فلسطين وبين شعبها وفي العالم كلّه".[6]

إحدى المؤسّسات التي تابعتها خلال هذه الفترة هي "Palestine film institute". من خلالها شاهدت فيلم *أمريكا (2009)*، الذي تدور أحداثه حول قصّة عائلة فلسطينيّة مكوّنة من أمّ وطفلها. الأمّ تعمل موظّفة في مَصرِف، وابنها يتعرّض لمضايقات مستمرّة من قِبل الجيش الإسرائيليّ. وبسبب الأوضاع الحياتيّة الصعبة، تنتقل هذه الأسرة إلى الولايات المتّحدة سعيًا لحياة أفضل، ولكن ذلك مقرون بتحدّيات وعقبات. هذا الفيلم وأفلام فلسطينيّة أخرى لم تكن متاحة للجميع في فترة ما قبل الكورونا.

صورة (2): إعلان فيلم أمريكا (2009).[7]

5. صالحي، يوسف. مقابلة شخصيّة.

6. المصدر السابق.

7. المصدر: الموقع الإلكترونيّ الرسميّ لمؤسّسة فلسطين للأفلام (Palestine film institute).

من المطبخ وإليه

في الفترة الأخيرة، تعجّ وسائل الاتّصال الاجتماعيّ بكلّ ما يتعلّق بالكورونا، وبما حلّ على العالم جرّاءها من كوارث في الأرواح والأرزاق. ولكن كما تعوّدنا أن ننظر إلى بارقة الأمل في آخر النفق، فإنّ وجه الكورونا الإيجابيّ (إن صحّ التعبير) هو كمّيّة صور الطعام ووصفات المأكولات في وسائل التواصل الاجتماعيّ من العالم والعالم العربيّ، وعلى وجه التحديد المطبخ الفلسطينيّ؛ إذ كلّما تصفّحتُ الفيسبوك انكشفت على وصفات طعام فلسطينيّة جديدة لم أكن قد عرفتها من قبل: تشكيلات العجين والمخبوزات، الحلوة ومنها المالحة، التي لا حدّ لها، بالإضافة إلى مقادير المعلومات بشأن كلّ ما يتعلّق بالأعشاب والنباتات الفلسطينيّة (التي تنبت في أرض فلسطين)، وكيفيّة استخدامها في المطبخ. قالت لي ميرنا بامية (مؤسِّسة مشروع استضافات فلسطينيّة):[8]

> "الأكل هو وسيط ولغة. بواسطته يمكن للناس أن يتواصلوا في ما بينهم؛ فمن خلال الأكل وفعّاليّة الطبخ خاصّة بتصير علاقتنا ومعرفتنا لحالنا أوّلًا ولغيرنا ثانيًا أقوى. التواصل الاجتماعي عِنّا كشعب مبني على الأكل؛ فإحنا عمليًّا مْنِجْتمع لنصنع القطايف والمعمول وهذا دليل على أنّ الأكل هو محور التواصل".

أضافت ميرنا قائلة إنّه مع الحداثة والتغيُّرات التي طرأت على العالم، تغيّر مفهوم الوقت. لكن في ظلّ كورونا والوقت الإضافيّ الذي منحته لنا، علينا أن نحاول إرجاع مفهوم الوقت واستغلاله، ولا سيّما إذا تمحور الموضوع في الطبخ وصنع الطعام كما اعتدنا أن نفعل "زمان"؛ فنحن في هذه الأوقات نعتمد على الفعّاليّات نفسها التي اعتدنا أن نقوم بها في وقت الانتفاضة (المونة وتخزين الأكل -على سبيل المثال).

كلّ ما ينشره الفلسطينيّون في هذه المنصّات يدفعني لاجتياح المطبخ مرارًا وتكرارًا، كي أجرّب إعداد كلّ ما أراه من وصفات؛ لأنّني متأكّدة أنّني لست الوحيدة التي تفعل ذلك بلهفة ورحابة صدر -"والصور بتحكي".

صورة (3): مشروع فلسطين مجتمع مضياف.[9]

8. بامية، ميرنا. مقابلة شخصيّة.

9. المصدر: صفحة الإنستجرام الرسميّة لمشروع فلسطين مجتمع مضياف (Palestine hosting society). لمعاينة الموقع الإلكترونيّ الرسميّ للمشروع، اضغطوا هنا.

في الختام

كادت كورونا تجعلنا "أرضيّين تحتيّين نخشى الشمس والنور"، لكن استطعنا وما زلنا نفرض العكس من ذلك، وهذا ما يجعلنا لا نخشى النور ولا الشمس، بل أولئك الذين يبثّونه من الأرض. ولكن يبقى السؤال: إلى أيّ مدى ينخرط الجيل الشابّ في المنصّات الثقافيّة والفنّيّة النقديّة والمبدعة؟ وذلك أنّ سهولة الوصول إلى منصّات التواصل الاجتماعيّ قد تعمّم الثقافة والفنّ والحِوار الديمقراطيّ، ولكن التحدّي يكمن في ألّا يسود الرديء؛ وهذا يتطلّب منّا انخراطًا واعيًا ونقديًّا.

*زينة أبو زرقة: طالبة في السنة الأخيرة لنيل درجة البكالوريوس في الإعلام والسينما والتلفزيون من جامعة تل أبيب.

الرجوع لقائمة المحتويات

Jadal جدل

مقالات إضافيّة

من وحي الانتفاضة عام 2000 وما بعدها

*مهنّد مصطفى

يمرّ المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل بتحوُّلات جوهريّة في السنوات الأخيرة، فضلًا عن تأثُّره بمتغيّرات المشهد الفلسطينيّ العامّ. أسهمت هذه التحوّلات في إحداث تغيُّرات في الحقل السياسيّ الفلسطينيّ. ظهرت تمثُّلات هذه التحوُّلات /التغيُّرات في مَحاور عديدة، من بينها تحوُّلات في القيادة السياسيّة من حيث عملها وتوجُّهاتها السياسيّة؛ إذ ليس في الإمكان قراءة تحوُّلات القيادة بمعزل عن التحوُّلات الاجتماعيّة - الاقتصاديّة التي مرّ ولا زال يمرّ بها المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل. فالقيادة السياسيّة (سواء في ذلك القطْريّة والمحلّيّة)، في أغلبها، هي تَجَلٍّ لهذه التحوُّلات من جهة، وتقوم بدَوْر في بلورتها وتعظيمها من جهة أخرى.

تمثِّل الانتفاضة الثانية في جوهرها، بالإشارة إلى أوضاعنا الحاليّة، على تداخل الناس مع المشروع السياسيّ الجماعيّ، مشروع البقاء، والأرض، والمقدَّسات. حملت هذه الانتفاضة مشاركة جماعيّة للناس بوعي وطنيّ، وبحسّ جماعيّ؛ إذ إنّ الوعي لا يكفي بدون الحسّ الذي يرافقه. هذا المزيج بين الوعيِ العقلانيّ بقضايا المجتمع، والشعورِ بالانتماء له، ميّز سلوكَ الناس في الأحداث. مثّلت الانتفاضة ما نفتقده اليوم: تداخُلَ الناس في العمل السياسيّ (مقابل العزوف عنه اليوم)؛ مشاركة الناس في النضال الشعبيّ (مقابل اقتصاره اليوم على شريحة صغيرة)؛ وجود قيادة تقود ولا تُقاد، قيادة لديها مشاريع سياسيّة وطنيّة (أمام مشاريع تحاول نزع السياسة عنها). والسياسة بمفهوم وجود حالةِ تسييس نابعةٌ من الانتماء إلى مشروع وطنيّ فلسطينيّ يحمل تنوُّعًا أيديولوجيًّا داخله، لكن تَجْمعه ثوابت وطنيّة مشتركة، أهمّها أنّ قضايا الفلسطينيّين في مناطق الـ 48 هي جزء من القضيّة الفلسطينيّة ولا يمكن الفصل بينهما.

أدركت إسرائيل أنّ انتفاضة القدس والأقصى في أكتوبر عام 2000 هي حدث مفصليّ. وإذا استمرّت روحها في الحضور، فسيكون المواطنون العربُ غيرَ العرب الذين عرفتهم قبل ذلك. تبنّت إسرائيل إستراتيجيّتَيْن في التعامل مع هذه الحقيقة، وكلتا الإستراتيجيّتين تصبّان في تحقيق هدف واحد: تفكيك المشروع السياسيّ الجامع والجماعيّ للفلسطينيّين في الداخل. الإستراتيجيّة الأولى هي تجريم العمل السياسيّ، وملاحقة حركات وقيادات سياسيّة تشدّد في خطابها على تنظيم الجماهير الفلسطينيّة. وشهدنا، خلال العَقد الأوّل بعد الانتفاضة، حملة حثيثة وكثيفة في ملاحقة حركات وقيادات سياسيّة، بل شهدنا كذلك ملاحقة ناشطين سياسيّين. معنى ما حصل هو إعادة بناء وتفعيل الملاحقة السياسيّة، ولكن بطرق أكثر ذكاء. كان ذروةَ هذه العمليّة إخراجُ الحركة الإسلاميّة عن القانون خلال العَقد الثاني بعد الانتفاضة. وكانت لجنة أور قبل ذلك قد حمّلت الشيخ رائد صلاح جزءًا هامًّا من مسؤوليّة اندلاع الانتفاضة، إضافة إلى الدكتور عزمي بشارة والمحامي عبد المالك دهامشة. لذلك فهي تنتقم كلّ مرّة من الأوّل (الشيخ رائد صلاح) عبْر الاعتقالات والأَسْر في محاولة لتغييبه وتغييب دَوْره السياسيّ، ولفّقت للثاني اتّهامات أمنيّة اضطرّته إلى ترك البلاد، وانتهى دَوْر الثالث سياسيًّا بعد خروجه من الكنيست.

الإستراتيجيّة الثانية، والتي تعمل بالتوازي مع الأولى، مركّبة جدًّا وتتمثّل في دمج الفلسطينيّين كأفراد في المجتمع الإسرائيليّ، وما ساعد على ذلك هو التوجُّهات الليبراليّة في الاقتصاد الإسرائيليّ

الذي تتبنّاه الدولة بعد صعود اليمين إلى الحكم. وتَعزَّزَ هذا التوجُّه بعد الانتفاضة، وبالطبع لا ننسى أنّ نتنياهو، وهو من الداعمين لِليبراليّة السوق، كان وزيرًا للماليّة في حكومة شارون الثانية. لا أقول إنّ هذه السياسات خاصّة بالعرب، بل هو توجُّه عامّ في إسرائيل؛ فاليمين الإسرائيليّ ينطلق أيديولوجيًّا من توجّهات ليبراليّة في الاقتصاد، أي انسحاب الدولة من الاقتصاد، وإفساح المجال لقوانين السوق بأن تقود هي دفّة الاقتصاد، فضلًا عن اندماج الاقتصاد الإسرائيليّ في العولمة. ولكن ضمن هذا التوجُّه، عملت مؤسّسات الدولة على إفساح المجال لدمج العرب في الاقتصاد كأفراد، دون تمكينهم من بناء اقتصاد عربيّ وإن كان على نطاق محلّيّ. وأنفقت الدولة المليارات لدمج العرب في الاقتصاد، ولا سيّما النساء العربيّات، والخطّة الاقتصاديّة الخمسيّة "922" التي هي جزء من هذا التوجّه. ينطلق هذه التوجّه من أنّ الأدوات الاقتصاديّة الليبراليّة تفكّك المجتمع إلى أفراد. صحيح أنّهم أفراد متميّزون وناجحون، ولكنّنا نعلم أنّ التميُّز الفرديّ لا يلغي التمييز الجماعيّ. هذه قاعدة تعلّمناها من كلّ تجارب المجموعات المقموعة في العالم. وكلّ السياسات الاقتصاديّة الليبراليّة، لا على الصعيد المحلّيّ فحسب، تؤدّي إلى تفكيك المجتمع بما في ذلك المجتمع المتضامن، صاحب المشروع الجماعيّ، حيث يتفكّك إلى مشاريع فرديّة. والمشاريع الفرديّة هي مشاريع مشروعة بالطبع، ولكنّها لا تصبّ في مشروع جماعيّ، وهذه هي النقطة التي تهمّنا.

ينطلق هذا التوجّه من مقولةٍ ملخَّصُها أنّ الحقل السياسيّ الحاليّ يتأثّر بالِغَ تأثُّر من نشوء علاقات قوّة اقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة جديدة مع النظام السياسيّ، وذلك في السياق النيو_ليبراليّ، عزّزتْ صيرورةَ تفكُّك هذا الحقل على مستوى التنظيم، وتصاعدت فكرة التمثيل السياسيّ والتأثير على النظام السياسيّ من داخله، منطلقةً من خطابٍ مُفادُهُ أنّ زيادة التمثيل تزيد من التأثير، متجاهلةً الجوهرَ الاستعماريّ الذي يتّسم به النظام السياسيّ، وصعودَ دَوْر مواقع التواصل الاجتماعيّ وتأثيرَها على الحقل السياسيّ الفلسطينيّ.

في حالة المجتمع الفلسطينيّ الذي أظهر قدرًا كبيرًا من الوعي والحسّ الجماعيّ خلال الانتفاضة، مُزج التعامل معه من خلال الإستراتيجيّتين اللتين ذكرتهما: الملاحقة السياسيّة والاندماج الاقتصاديّ. في حالة المجتمع اليهوديّ كان الأمر معاكسًا، ولكنّه مثير في الوقت نفسه لنفهم حالة سياسيّة مثل إسرائيل. فقد تبنّت إسرائيل، وعلى وجه التحديد اليمين الإسرائيليّ الذي يحكم منذ الانتفاضة بلا انقطاع، سياساتٍ ليبراليّةً في الاقتصاد تحدّى فيها اليمينُ فكرة دولة الرفاه بمفهومها الاشتراكيّ الديمقراطيّ، ولكنّه شدّد بالمقابل وبالتوازي على يهوديّة الدولة. وتشريع قانون القوميّة قبل عامين هو ذروة هذه العمليّة. تبنّى اليمين الإسرائيليّ سياسات ليبراليّة في الاقتصاد، وكان بالتوازي يعيد إنتاج وبناء المجتمع والقوميّة اليهوديّة ويرصّها بخطاب دينيّ - قوميّ. بمعنًى آخَر وأكثر بساطة، يمكن القول إنّ اليمين يصوغ مشروعًا سياسيًّا جماعيًّا صهيونيًّا قوميًّا - دينيًّا، تُضبَط من خلاله حدود المجموعة ومفهوم الوطنيّة والانتماء لها، واحتكار تعريف الصهيونيّة وجوهرها، وفي الوقت نفسه يتّبع سياسات ليبراليّة في الاقتصاد تشدِّد على انسحاب الدولة من الفعل والتأثير الاقتصاديَّيْن قدر الإمكان. لم يحدث التفكّك في المجتمع اليهوديّ؛ وذلك لأنّه رافق الاقتصادَ الليبراليَّ مشروعٌ سياسيّ جماعيّ قوميّ - دينيّ. وبالطبع ثمّة علاقة وتداعيات للمزج بين التوجّهات القوميّة الدينيّة في السياسة والتوجّهات الليبراليّة في الاقتصاد، لا يسمح المجال لسبر أغوارها هنا.

لم يستغلّ المركز السياسيّ الفلسطينيّ هذا الحدث المفصليّ من خلال إعادة قراءته وفهمه سياسيًّا، ومن خلال السعي إلى تنظيم المجتمع العربيّ عبر بناء مؤسّسات وطنيّة جامعة وتفعيلها. لم يكن هذا القصور فوريًّا، بل تراكم حتّى وصلنا إلى المرحلة الحاليّة التي تَرسّخَ فيها تعظيم

سياسات التمثيل على حساب سياسات التنظيم، وتمثيل المجتمع في مؤسّسات الدولة مقابل تنظيم المجتمع في مؤسّساته الوطنيّة.

سياسات التمثيل قد تُحقّق إنجازات مدنيّة للمجتمع العربيّ، على الرغم من أنّ التحسُّن النسبيّ في توزيع الميزانيّات والموارد على المجتمع العربيّ نابع من تصوُّر إسرائيليّ في دمج العرب في الاقتصاد الإسرائيليّ، علاوة على التزامات إسرائيليّة دوليّة، ازدادت بعد انضمامها إلى منظّمة التعاون الاقتصاديّ (OECD) التي تنشر سنويًّا تقارير الفجوات داخل الدول الأعضاء في شتّى المجالات: التعليميّة؛ الصحّيّة؛ الاقتصاديّة... لا أبتغي أن أنفي أنّ لسياسات التمثيل تأثيرًا على إعادة توزيع الموارد على المجتمع العربيّ، ولكنّها تكون عينيّة، ولا تحمل من طرف الحكومة توجُّهًا نحو المساواة الكاملة التي لا يمكن أن تتحقّق ما دامت إسرائيل تُعرِّف نفسها دولةً يهوديّة. ولكن سياسات التمثيل وغياب سياسات التنظيم تؤدّي إلى أسرلة المجتمع، باعتبار أنّ خياره للتقدُّم يكون عبر الاندماج في اللعبة الإسرائيليّة حصرًا، فضلًا عن أنّ هذا الاندماج يكون فرديًّا، لأنّه لا يمكن أن يكون الاندماج جماعيًّا في دولة كإسرائيل، وليس ثمّة سوى الاندماج الفرديّ. وأنا أرى في هذا الاندماج شكلًا من أشكال الأسرلة، وأرى فيه تحديدًا أسرلةً بوعي؛ أي إنّها ليست نابعة من الخوف كما كان الأمر في سنوات الحكم العسكريّ، ولا نابعة من انبهار كما كان الشأن في بداية التسعينيّات بعد توقيع اتّفاق أوسلو، ولا عن جهل أو انتهازيّة شخصيّة، بل عن وعي بذلك. ونلاحظ أنّ حالة الأسرلة الراهنة تتعاظم في الفترة التي تَحكم فيها حكومة هي الأشدّ تطرّفًا في تاريخ إسرائيل وَفقًا للسياق التاريخيّ الذي نعيشه. في التسعينيّات، ظهرت حالة الأسرلة في ظلّ حكومة رابين التي ذهبت إلى تسوية مع منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وكانت هنالك أجواء تفيد بأنّ الدولة الفلسطينيّة على الطريق، وكانت هنالك مشاركة للأحزاب العربيّة في الحكومة ككتلة مانعة من الخارج، وجرى إنفاق مليارات الدولارات على السلطات المحلّيّة العربيّة. الآن، نحن في حالة أسرلة في ظلّ حكومة تُقْصي العرب، وتلاحقهم، وتشرّعِ قانون القوميّة، وتدمّر المشروع الوطنيّ الفلسطينيّ. لذا، فإنّ تعظيم سياسات التمثيل في هذا السياق في السياسة العربيّة يعزّز من الأسرلة. الأسرلة بوعي تنطلق من أنّ الخلاص الفرديّ يكون بالاندماج، والأسرلة هنا ليست تشوُّهًا في الهُويّة بالضرورة، إذ قد يكون صاحبها يمتلك الوعي الوطنيّ أو الحسّ الدينيّ، ولكن مقصدها أنّ الخلاص هو فرديّ وليس جماعيًّا؛ الخلاص هو الاندماج كفرد متميّز ومتفوّق وناجح، وليس ضمن بناء مشروع سياسيّ جماعيّ. الأَسْرَلة بوعي هي نزع السياسة عن المشروع الخلاصيّ الفرديّ. وإذا نُزِعت السياسة عن تفكيرك، قلّ انتماؤك للمشروع السياسيّ الجماعيّ.

*د. مهنّد مصطفى، المدير العامّ لمدى الكرمل.

الرجوع لقائمة المحتويات

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية